زكي مبارك

بين رياض الأدب والفن

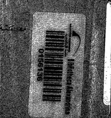
عرض ونقد وتحليل

بقلم

فاضل خلف

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة





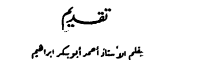
بقلم

فاضل خلف

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية




تقديم
بقلم الأستاذ أحمد أبو بكر ابراهيم
مفتش اللغة العربية بمعارف الكويت



عشت مع هذا الكتاب فترة من الزمن ، قبل أن يأخذ طريقه إلى المطبعة ، وقبل أن تتناوله الأعين وتتلقاه الأفهام ، وقد كنت عودت نفسى — فيما أقرأ من كتب الأدب بخاصة — أن خلى بينها وبين العاطفة أولا ، فإن استجابت لها وتأثرت بما فيها من صور الفن وأدوات الجمال ؛ — عاودت النظر فيها مرة أخرى مستوعبا ومدققا ؛ لأستجلى مناهجها ، وأستبين ما أضافته إلى تراثنا الأدبى من آراء ونظريات ! . . .

ولست أدرى أيشعر قراء هذا الكتاب بما شعرت به عند قراءتى الأولى له ، أم لايشعرون ؟ . . . لقد خيل إلى — وأنا أتملاه بإحساسى — أنى أعيش مع « الدكتور زكى مبارك » ، وكأنه الفارس ، يبدأ حياته بالتمرس والمرانة ، واختيار الأداة والعدة ، حتى إذا اكتملت له الأسباب ، وأنس من نفسه القدرة العارمة ؛ — أخذ يطوف فى كل ميدان متحديا مناضلا ، غير عابئ بما يلقاه ومن يلقاه من المناضلين والمنازلين ، وخيل إلى كذلك أن الأيام قد مضت بفارسنا على مايحب ، حتى تغيرت الحال غير الحال ، وأدبرت عنه القوة ، وجفاه الغلب ، فإذا بالسلاح الذى طالما أفزع به الأقران فى يد ترتعش ، وإذا المناضلون من حوله يدركهم من أجله الرثاء والإشفاق ، وهما أقسى ما يمتحن به الأبطال فى أيام الكهولة والشيخوخة ! . . .

لقد تواثبت إلى إحساسى هذه الصور الخيالية وهى صورة معبرة — فيما أعلم — عن حياة أديبنا « الدكتور زكى مبارك » . ومعنى ذلك أن « الأستاذ فاضل خلف » قد أوفى على الغاية فى تصويره الفنى لحياة الدكتور ، واستطاع بهذا التصوير أن

يستهوى عاطفة القارئ ويجتذب شعوره .

ومن أعجب ما أذكره فى هذا الصدد أن صورة المؤلف — كما أعرفه — كانت تتراءى لعينى ، بجانب صورة الدكتور فى بعض المواقف ، ثم لا تلبث الصورتان أن تلتقيا ، فإذا هما شيء واحد ! . . . لقد كان ذلك عندما تحدث عن صبره فى متابعة الدرس ، وجلده فى التحصيل . ولا أحسبنى مبالغا إذا قلت : إن هذه الصفات واضحة فى مسلك المؤلف ، ويدركها أولئك الذين عرفوه عن قرب ، وخبروا جهده وتطلعه ، وصبره على الاطلاع والتحصيل ! . . .

وربما التقى المؤلف فى كتاباته العاطفية والقصصية بـ « زكى مبارك » فى صفة من صفات الأسلوب ، هى تدفق العاطفة ، واستعارة طائفة من خصائص الشعر للكتابة النثرية . . . وهذا أمر طبيعى ؛ فكلاهما شاعر ثائر يزحم خياله تفكيره ، وتطغى عاطفته على منطقه ، وقد يفسر لنا هذا التوافق — فى بعض النواحى — السر الدافع للمؤلف إلى اختيار « زكى مبارك » موضوعا لكتابه الأدبى الجديد .

وأعود بعد ذلك لأذكر القارئ الكريم أصداء القراءة الثانية فى نفسى ، قراءة الفكر والتدقيق والإحصاء ، وهى قراءة خرجت منها بحقائق كثار . . .

فالكتاب دراسة وافية لحياة الدكتور ، من لدن نشأته فى « سنتريس » حتى وفاته ، وقد عالج المؤلف هذه الحياة بأسلوب شائق ، يكشف عن الوسائل التى تذرع بها الدكتور للوصول إلى المجد والشهرة . . . وسيجد القارئ فى ثنايا الأبواب أنها وسائل ثلاث كان لكل منها من حياته نصيب .

ومن عجب أن تكون وسيلة الشباب أشدها مقصدا ، وأدناها إلى تحقيق

الغايات ؛ فهى جهاد وتحصيل ، ومغامرة واندفاع ، وإنتاج قيم .

فلما يئس الدكتور بعد حين من الوصول إلى المكانة التى تخيلها لنفسه اتهم الزمن بالغفلة والإهمال ، وراح يثنى على كتبه ، ويعدد وجوه الفضل فى عمله ، وقد كان محقا أول الأمر فى كثير مما قال ، ولكن الأسلوب الذى اتبعه أتاح الفرصة لحساده ومنافسيه فهاجموه بالحق وبالباطل .

أما الوسيلة الثالثة ، فقد شاء بها الدكتور أن يتسامى الألم راضيا بما أبقاه له جهاده من كتب قيمة خلدت ذكره ، وإن لم يسعفه الزمن بالمنزلة التى أرادها فى الحياة ، لقاء إخلاصه للأدب ، وتفانيه فى التأليف .

يبسط الكتاب هذا كله مستندا إلى تاريخ الحياة ، وقيمة الإنتاج فى كل فترة من فتراتها ؛ بصورة تجعل السؤال التالى وإجابته على لسان كل قارىء : « هل كان مقدرا لـ « الدكتور زكى مبارك » أن ينال من الحياة أكثر مما نال لو ساعـــده الحـــظ ؟ . . .

الحق أن نهاية « زكى مبارك » لا تتناسب بحال مع تأليفه النثر الفنى فى مطالع الحياة ، والحق الذى لا شك فيه أن حظه العاثر كان سببا فى تخلفه عن أقرانه ، ومن هم دونه ، فى الوصول إلى المناصب ، واجتناء الفوائد .

لم تكن غاية المؤلف من هذا الكتاب الإسراف فى النقد ، وتفصيل القول فى المناهج الأدبية لـ « الدكتور زكى مبارك » ؛ — وإنما أراد تسجيل الحياة ، والإشارة إلى المؤلفات على أنها صورة لجهاده ، ومتممة لحياته . ولكنه مع هذا لم يغفل التعليق المفيـــد ، والتعقيب الضرورى ؛ — فجاء الكتاب — على

ما أعتقد — وافيا بالغرض؛ محيطا بالنواحي التي استهدفها المؤلف في تأليفه!...

وبعد فقد عرفت الأديب الكويتي «الأستاذ فاضل خلف» من قبل كاتب قصة، ومحرر مقالة، وها أنذا أعرفه في هذا الكتاب مؤلفا في الأدب — وهذه الأعمال المتلاحقة إن دلت على شيء فإنما تدل على جهد محمود، ورحابة أمل، وإخلاص للأدب الذي صادف في نفسه الأصالة والطبع، وأنا حين أقدم كتابه الجديد «زكي مبارك» للقراء، فإني أقدمه معتزا به، بل أعتده مشاركة محمودة في ميـــدان الأدب العربي، وآمل أن يجد من نفوس القراء ما يستأهله من المكانة، والله الموفق!!...

أحمد أبو بكر ابراهيم

الإهداء

إلى روح « الدكتور زكي مبارك »

ذكرتك في غمرة الحادثات	وإن الحديث يثير الشجن
كذكرى حياتك أنشودة	يُعزى بها الحر عند الحزن
فمجدك قد سار في الخافقين	وحظك بين الورى قد وهن
وما ذاك إلا لأن الحياة	تحارب أهل الحجى والفطن
وكل أبيّ يعاني الصعاب	وليس له في فضاها سكن
لقد عشت حرا صريح اليراع	فعضتك أنياب هذا الزمن
وجابهت بالنقد بعض الأنام	فشنوا عليك سهام الضغن
ولو صنت سرك لم تمتحن	بشتى صنوف الأذى والمحن
فهذا كتابي قد فصلت	حياتك فيه وأنت المقن
إلى روحك الحر أهدي الكتاب	وإني تلميذك المؤتمن

فاضل خلف



هذا الكتاب

كنت قد نشرت مقالات عن « زكي مبارك » بعد وفاته ، في أوائل سنة ١٩٥١ م ، فاعترض على أحد الأصدقاء ، وطالب بإيقاف تلك المقالات ، زاعما بأن « زكي مبارك » أديب من أدباء الطليعة ، وسيكتب عنه من هم أكثر مني اتصالا به ، وأكثر مني معرفة بشخصيته ، ومذاهبه في الأدب والنقد . فاستمعت إلى نصيحة ذلك الصديق ، وأوقفت تلك المقالات ، وقد كان في نيتي أن أواصل البحث .

ومرت الأيام دون أن يصدر كتاب عن هذا الأديب الطموح الثائر ، ولم يتصد لدراسته من لهم اتصال وثيق به وبآثاره الأدبية ، وأردت أن أقوم بهذا العمل ، ولكن حماستي الأولى كانت قد هدأت ، ووجدت الكتابة في هذا الموضوع أمرا غير يسير .

وفي العام الماضي صدر كتابي « في الأدب والحياة » ، وفيه الفصول الخمسة التي كتبتها عن « زكي مبارك » . وما كان في حسباني أنها ستحدث أثرا في الأوساط الأدبية كالذي أحدثته ؛ فقد وصلتني رسائل التشجيع من جميع البلاد العربية ، لا سيما من مصر بلد العلم والعرفان ، وكان في مقدمتها رسالة من الأستاذ الكبير « زكي طليمات » ، فوجدت نفسي إزاء هذا التأييد مضطرا الكتابة عن « زكي مبارك » مرة أخرى ؛ لأحقق ظن الأدباء الذين

تكرموا بالكتابة إلى فى هذا الموضوع ، وعاودتنى حماستى الأولى فكتبت هذه الفصول التى أقدمها الآن بين أيدى إخوانى القراء الكرام ، بمناسبة مرور خمس سنوات على وفاة « زكى مبارك » .

وأعترف أن هذا الكتاب الصغير لم يلم بجميع نواحى هذا الأديب الطموح الثائر وأرجو أن تكون هذه المحاولة عن « زكى مبارك » مقدمة لكتب يتصدى لكتابتها أدباء الشباب .

لقد جاء فى هذا الكتاب ذكر لبعض كتب « زكى مبارك » : كالنثر الفنى ، والتصوف الإسلامى ، والأخلاق عند الغزالى ، وعبقرية الشريف الرضى ، ولكننى لم ألخصها ، أو أحلل ما جاء فيها ؛ لأن تلخيصها يحتاج إلى صفحات طويلة توازى صفحات هذا الكتاب .

ولم أبسط القول فى النهاية التى وصل إليها « الدكتور زكى مبارك » كما سمى نفسه — وحياته فى السنوات العشر الأخيرة تحتاج إلى كتاب مستقل ، لما فيها من غرائب وأسرار ، ولا يستطيع الإحاطة بها وتفسير غوامضها إلا أديب متفرغ .

وبعد فقد قال « زكى مبارك » فى إحدى مقالاته :

« وأخشى ألا أظفر بكلمة رثاء يوم يشيعنى الناس إلى قبرى ، فذاكرة بنى آدم ضعيفة جدا ، وهم لا يذكرون إلا من يؤذيهم ، أما الذى يخدمهم ، ويشقى فى سبيلهم ، فلا يذكره أحد منهم بالخير إلا وفى كلامه نبرة تشير إلى

أنه يتصدق بكلمة المعروف » .

فليكن — إذن — هذا الكتاب كلمة رثاء الأديب الذى خشى ألا يظفر بكلمة رثاء يوم يشيعه الناس إلى قبره ! . . . ولكن هذا الكتاب أيضا ذكرى مخلصة للأديب العصامى المكافح ، الذى شق طريقه فى الصخر والشوك ، من الريف إلى صف الطليعة من كتاب العرب . ولكن هذا الكتاب كذلك تحية لعشاق أدب المرحوم « الدكتور زكى مبارك » .

الكويت : يناير ١٩٥٧ م . المؤلف

سنتريس

فى هذه القرية من الريف المصرى ولد «زكى مبارك» فى صيف ١٨٩٢ م [1] ونشأ فلاحا بين الفأس والمحراث، وهو يفخر بأنه فلاح، وصرح مرارا بأن آثار الفأس والمحراث منقوشة على يديه. ومن الريف تعلم الجد والعمل المتواصل، ومن الريف اكتسب الصراحة والقوة وطيبة القلب، ومن الريف نشأ قوى الجسم، سليم العقل، متوثب الإحساس ومع هذا نشأ نشأة حزينة.. كان يرى أهله فى الأعياد يخرجون للمقابر ليلة العيد؛ ليسلموا على الأموات، وسكان الريف يصنعون الحلوى والكعك فى العيد، ولكنه نادرا ما كان يجد الكعك، بل كان يجد القهوة المرة، وذلك لأن أسرته الكبيرة كثيرا ما كانت تصاب بأبنائها، فيمر العيد والأسرة محزونة فيتأثر بها الصبى، وهذا هو الذى جعله بعد ذلك يحرر فى كل عيد مقالا حزينا باكيا. وهذا الحزن جعله شديد الحساسية، وصيره شاعرا يوزع حنينه فى مؤلفاته وكتاباته.

ويقول «زكى مبارك» من مقال بعنوان «العيد فى سنتريس» والعيد

---

(١) يقول «زكى مبارك»:

وفى آب ميلادى تمالت صبابة ... لها آب فى دنيا الصبابة منزل

ولفت مع الأعناب والنيل ثائر ... يجور بأرجاء البلاد فيعدل

فى نفس أهل « سنتريس » صورة الفرح والانشراح ، وهم لذلك يحرمونه على أنفسهم فى العيد ، إذا كان فى البيت حزن ، والأهل والجيران راغون خواطر من مات لهم ميت ، لم يمض عليه العيد فيمتنعون عن خبيز الكعك » .

وقد فتن بالشعر منذ الطفولة ، وكان لايجد كتابا يحوى أبياتا من الشعر إلا انكب عليه ، وأخذ يروى ظمأه بقراءته والتأمل فيه ، وكان يعتقد فى حداثته أن القدماء منفردون بالشعر ولا يشاركهم المحدثون فيه أبدا ، حتى رأى والده يوما من الأيام ، وهو يحمل كتابا فيه أشعار لرجل معاصر ، واسمه « حافظ إبراهيم » فدهش الصبى ، وأخذ يسأل الناس عن هذا الأمر ، فعلم أول مرة أن نظم الشعر ليس مقصورا على القدماء فقط ، بل باستطاعة كل إنسان — إن كان مهيأ للشعر — أن ينظمه ويترنم به . فصمم الصبى منذ تلك اللحظة على أن يكون شاعرا ، يسابق أربابه القريض فى ميادين الشعر . وكانت لهجارة جميلة فى مثـــل سنه ، فتنته بجمالها وأحاديثها الشائقة ، فراح ينظم فيها مقطوعات من الأناشيد والقصائد وكانت أشعارا ساذجة نستطيع أن نقول عنها إنها من عبث الطفولة ، ولكنها على أية حال كانت منبعثة من قلب خفاق ، يحس معانى الجمـــال فى ريّق العمر وبواكير الصبا .

وقد تعرض وهو طفل للموت غرقا فى « سنتريس » لولا أن سلم الله ، فقيض له رجلا صالحا من فلاحى « سنتريس » اسمه « أحمد الصواف »

فانتشله من الغرق ، وهو بين الموت والحياة ، وهذه الحادثة ظلت تؤرقه بعد أن تقدمت به الأيام وبلغ مبلغ الرجال . ودليلنا على ذلك أنه رأى منظراً مؤلماً لأحد الشباب ، وهو يغرق فى « باريس » فأخذ يتألم له ويتأوه على حين كان الباريسيون يتضاحكون من حوله ، حتى رجال الإسعاف الذين جاءوا لإنقاذ الغريق ! . . .

ومن المناظر التى أثرت فيه فى صباه ، وجعلته يذكرها بمزيد من الشوق واللهفة ، منظر الصبايا فى « ستتريس » ، وهن يملأن جرار الماء من السواقى ، فكان يتبعهن بعينيه وفى قلبه لوعة الشاعر المفتون .

وكان يبكر فى الصباح ويذهب مع أبيه الفلاح ثم يباشر أعماله التى تنتظره وهى سحب الجاموسة أو البقرة إلى المراعى ، وهو يكاد يطير من الفرح والسرور . وكان أبوه يصفه بالنشاط والتقوى . أما هو فيقول : « وما كان يعلم — طيب الله ثراه — أنى لا أبكر إلا لأشهد السرب الأول من أسراب الملاح ! . . . » .

وقد ظل وفياً لقريته الأولى « ستتريس » ، وكان يذكرها بكل خير فى أشعاره وكتاباته ، وكان يسمى نفسه « شاعر ستتريس » .

وكان يحب « أهل ستتريس » ويذكرهم بالإجلال ، ويدافع عنهم ؛ فمن ذلك أنه دافع عن متهم من أهالى « ستتريس » ، وذهب يطرق أبواب المحامين للدفاع عنه ، ويظهر أنه أخذ يهذى من بالمحكمة بالمستشار ، وكان

يشهد لصالح المتهم، فسأله القاضى عن المستدس، فأجاب المحامى: «عجيب عليك ياسعادة القاضى أن تجرح أستاذا من أساتذة الجامعة المصرية ... إن المستدس الذى عملناه «الدكتور زكى مبارك» هو قلمه البليغ».

وقد وصف «زكى مبارك» «سنتريس» وأهل «سنتريس» أحسن وصف، عندما قال:

«وفى ضواحى «سنتريس»، حيث يحلو السمر، فى ليالى القمر، وعلى شاطىء النيل — هناك حيث النجم والشجر، والماء والزهر، فى تلك البقعة المشتبكة الجداول. حيث السواقى الشاديات، والطيور الصادحات، وتحت تلك الشجرة المتعلقة الغصون، المهدلة الشعور: — هناك حيث أستظرف الجلوس مع أولئك الأمجاد شجعان البلاد، أولئك الذين لم تخالط نفوسهم أوضار الحضارة ولا سموم المدينة، فتبدو لنا «سنتريس» وكأنها بسمة فى فم الكون، يضمرها إذا جن الليل، فما تتبين منها غير المصابيح الزاهرة، فى المغانى الساهرة، والأندية الساحرة».

وهذا الأسلوب فى وصف «سنتريس» كتبه «زكى مبارك»، عندما كان مولعا بالسجع فى أول حياته الأدبية، وهو يرينا كيف كان مولعا بمسقط رأسه، وملعب صباه، ومسرح نشأته.

وله قصيدة اسمها «ليالى سنتريس» قال فيها:

ليالى النيـــل واللذات ذاهبة وجدى عليكن أشجانى فأضنانى

لو يرجع الدهر لى منكز واحدة في «سنتريس» ويدنى بعض خلانى

إذن تبين دهرى كيف يرحمنى من ظلم همى ومن عدوان أحزانى

وعندما أقام له أصحابه فى العراق حفلة الوداع ، فى « بغداد » ألقى الشاعر « عبد الرحمن البناء » قصيدة قال فيها :

لبعدك كابدت « بغداد » حزنا وإن فرحت بقربك «سنتريسُ»

فالشاعر اختار هنا « سنتريس » ، لكى يشارك المحتفى به حبه لسنتريس ، التى يتردد اسمها على لسانه ، وعلى قلمه كثيراً .

حتى مسجد « سنتريس » يذكره فى كتاباته ويذكر « الشيخ محمد غريب » شيخ المسجد ، الذى كان يشرح الأحاديث النبوية فى عصريات « رمضان » فيجتمع حوله أهالى « سنتريس » فيلهيهم ويشجيهم .

كان « زكى مبارك » ذا شخصية قوية ، وكان يعتز بأنه فلاح ، على حين يأنف بعض الأدباء — إن كانوا من الريف — من كلمة الفلاح، وإذا ذكروا بها اشمأزوا وازوروا ، والواقع أن كلمة الفلاح كلمة شريفة ، تشرف كل من ينتسب إليها ، والفلاح هو الذى يحيل الأراضى البور إلى جنات تسر الناظرين ، أقول هذا لأن أحد كبار الأدباء كان ينعته « بالأديب الفلاح » قاصداً التشهير به ، أما هو فكان يسر ويفخر بهذا النعت ، ويعتبره وساما يتحلى به فى هذه الحياة ! . . .

في الأزهر الشريف

كان «زكي مبارك» من أسرة ريفية محافظة، تتطلع إلى العلم والفقه الإسلامي. وكان «الأزهر» غاية ما يتطلع إليه الشاب المصري عندما يشب عن الطوق، وينال قسطا من التعليم الأولى، فذهب إلى «القاهرة» للدراسة في «الأزهر».

وقد كان — كما قلنا في الفصل السابق — محبا للآداب والشعر، طموحا للعلياء، يحب أن يلتهم العلم التهاما. وما كاد يلتحق بالدراسة في هذا المعهد حتى لفت إليه الأنظار، بما ينظمه من شعر في التشبيب وأحاديث الغرام!...

والبيئة الأزهرية كانت بيئة محافظة جدا في ذلك الوقت، وكان زملاؤه ينظرون إليه بشيء من الغرابة والاستنكار؛ لأن نظم القصائد الغرامية والجهر بها، كان مما ينافي طبيعة الأزهريين، بل نظم الشعر بصورة عامة كان مجلبة للنقد في تلك البيئة الدينية، التي كانت تستشهد بالشعر للإعراب فقط، وغالبا ما يكون شعرا دينيا. وقد اجتمعتُ بشيخ أزهري فاضل عاصر «زكي مبارك»، فروى لي أن طالب العلم في الأزهر في تلك الأيام كان محظورا عليه أن يتعاطى غير دروسه المقررة،

وإذا ثبت أنه خالف هـذا النظام ، نظر إليه نظرة الاحتقار والازدراء ؛ لأنه مخالف لطبيعة الأزهر .

ورأى الفتى فى الأزهر أن الاشتغال بالآداب مما يحط من قيمة الشاب ، على حين كان يعد نفسه لدراسة الأدب والاشتغال به منذ الصبا ، فأحدثت له البيئة الجديدة ثورة نفسية ، استطاع أن يتغلب عليها بالاشتغال بالأدب ، ونظم الشعر بكل أنواعه ، لاسيما الغزل والتشبيب ، وأصبح ثائرًا على هذه الأوضاع التى لاتساير الزمن .

ويقول « زكى مبارك » من مقدمة كتبها لشرح « ديوان علقمة الفحل » للأستاذ « السيد أحمد صقر » :

« وكنت — وأنا طالب فى الأزهر — أحفظ الشعر سرا وأنظمه سرا ، لأن نظم الشعر كان ينافى الأزهرية الصحيحة ، وكان الاهتمام به من سمات الغافلين عن حقائق المتون والشروح والحواشى والتقارير . . . » .

وكانت المناهج الأزهرية فى عهده مناهج معقدة ، لاتتمشى مع روح العصر ، وكان يتحتم على الطالب أن يستظهر كثيرا من المتون والشروح فإذا سئل عن هـذه الشروح وتلك المتون لم يستطع أن يدلى بالجواب الصحيح ، الذى يجب أن يعرفه حق المعرفة . ولم تكن دروس النحو بالسهولة التى نراها فى هذه الأيام بعد أن اهتم رجال النحو فى العصر الحاضر به ، فأصبح سهل التناول ، قريبا لعقول الناشئة ، من ذلك المنهج الصعب المعقد ،

الذى ينفر أولى العزم من الرجال !...

فى ذلك الوقت التحق « زكى مبارك » بالأزهر ، فرأى الجو الذى تخيله ، ورأى نفسه متضايقا من المحيط الذى جاء فيه ، وأخذ يتطلع إلى آفاق بعيدة غير هذه الآفاق الضيقة ، التى تبلد الحواس الشاعرة ، وتقتل فى نفوس الشباب الطموح والتوثب . وقد كان شديد الغيرة على إصلاح الأزهر ، وتغيير طريقة التدريس فيه ، فأخذ ينشر فى الصحف — بامضاء الفتى الأزهرى — مقالات قوية مدوية ، كانت تصل إلى آذان المسئولين فى الأزهر ، فتحدث ضجة فى الأوساط الأزهرية ، وكان يقول :

« نريد أن يتغير التعليم فى الأزهر والمعاهد الدينية ، نريد أن نكون أعزة وقد صيرتنا هذه التعاليم أذلاء ، نريد أن نرسم الخطة لنهضة الممالك الإسلامية ، حتى يغلب الجاحدون على أمرهم ، فيدخلوا فى دين الله أفواجا ، من حيث لا يشعرون ...

نريد أن نمحو الوساوس التى دخلت فى العلوم العربية وأصول الفقه وعلم التوحيد ، ولا يضيرنا أن يحمل — بذهاب هذه الوساوس — مئات المتصدرين فى العلم والدين » .

وقد ألف مع جماعة من صحبة الغير على الأزهر — الأزهر الذى ملأ الدنيا حكمة وعلما منذ أن أنشىء — ألفوا لجنة أسموها « إصلاح الأزهر » ، وكان ينتصر للأزهر ، ويدعو المسئولين لحمايته والاعتناء به ، بصفته من

المعاهد الإسلامية القديمة ، التى أفاد منها طلاب المعرفة فى شتى ديار الإسلام.

وكان برنامج أصحاب هـذه اللجنة أن يجعلوا للأزهر منزلة ؛ كتلك المنزلة التى تتمتع بها جامعات العالم ، من حيث النظام ، والنظافة ، وسهولة المناهج ، مع احتفاظها بالقوة والحيوية ! ..

وكان يحز فى نفسه أن يرى طلاب الأزهر يجلسون على حصر بالية لاتقيهم رطوبة الأرض ، ويحشرون فى بناية غير صحية ، ويدرسون مناهج لاتمت إلى الأزهر بصلة ، مناهج عقدها الزمن وحرقتها الأيام .

يدخل الطالب وهو فى شرخ الشباب ، ولا يخرج إلا وقد وخطه الشيب ، وانتهبت زهرة شبابه السنون ، ثم يخرج فلا يجد من يعترف به وبشهادته .

وفى مقالاته عن إصلاح الأزهر كان يجهر ويقول: «هاتوا شبابى أيها الرؤساء ، فقد ذهبت به أيام الأزهر السوداء » .

وكانت الكتب الأزهرية فى أيامه لاتمثل العصر ، ولا تضاهى كتب المعاهد الأخرى ، وفى ذلك يقول :

« ولا تذكروا المكاتب الأزهرية فليس فيها كتاب من الأدب الحديث ، وهى مع ذلك لاتمثل شوق المصريين إلى الدرس ؛ لأنها فى الأغلب تباع فى غير مصر !.. »

وبما هو جدير بالذكر بهذه المناسبة أن « زكى مبارك » ، الذى حارب

مناهج الأزهر والنظم الأزهرية ، وطالب المسئولين باصلاح الأزهر ، عدل عن رأيه ، واعتبر نفسه من الخطئين ، وذلك عندما كان يلقى خطبته فى تحية من كرموه فى « النجف » بالعراق ، فقال :

« قرأت فى مجلة الحضارة كلمات يراد بها التشكيك فى قيمة الأنظمة القديمة ، وهو تشكيك أوحاه الروح السائد فى العصر الحديث ! ... ويهمنى أن أحارب هذا التشكيك فى مدينة « النجف » ، فقد اتفق لى أن أحارب المناهج الأزهرية زمنا غير قليل ، ثم علمتنى الأيام أنى كنت من الخطئين .

علمتنى الأيام أن طلبة الأزهر سرقوا كلمة « المستقبل » من طلبة المدارس ، وأخشى أن يقع هذا لطلبة العلم « بالنجف » . علمتنى الأيام أنه لابد لنا من رجال يعيشون للعلم وحده فلا يكون لهم معاش ، ولا يكون لهم مصير غير الفناء فى خدمة الحق » .

وهذا قول ألقاه « زكى مبارك » ، وهو يرتجل الخطبة ؛ لذلك فهو قول يحتاج إلى تعقيب وتمحيص ؛ لأننى زرت « النجف » ، ورأيت كيف يشكو الطلاب صعوبة المناهج النجفية ، وكيف يعانون شظف العيش ، والشهادة التى ينالها طلاب « النجف » ليس معترفاً بها وزارياً ، بينما طلاب « النجف » أقدر من طلاب المدارس النظامية فى معرفة أسرار اللغة العربية والفقه الإسلامى ! ... وقد رأيت كثيرا منهم يتصلون بالمدارس

الأخرى ، لإنهاء دراستهم ، لكى يضمنوا على الأقل لقمة العيش بعد التخرج ، كما كان يصنع الأزهريون قديماً .

وكأنما كان « زكى مبارك » يتنبأ لنفسه ، فقد عاش للعلم والفن ، ولم يكن مصيره غير الفناء فى خدمة الحق .

وبرغم ما كان يعانيه فى الأزهر من ضيق وصعوبة فقد كان مكبا على دروسه ، منافسا زملاءه لنيل قصب السبق ، وكان يقرأ بشغف زائد مايكتبه أساطين الأدب فى ذلك الوقت ، ويعجب بصورة خاصة بما يكتبه « مصطفى لطفى المنفلوطى » و « محمد السباعى » ، ويقول هو :

« أما المنفلوطى فكان يجذبنى إليه طبيعته السمحة ، وقلبه الطيع ، وقلبه الزاخر بالعطف والحنان . وأما « السباعى » فكان يحملنى على احترامه بصره باللغة العربية ، وذكاؤه الحاد الذى يتمثل فى إحياء الألفاظ والتعابير » .

وفى الأزهر استطاع أن يجعل زملاءه يشيرون إليه بالبنان ويحترمونه ، وكان ينظم الأشعار فى مدح أساتذته فى الأزهر ، منهم الشيخ « محمد البطان » والشيخ « محمد منصور الحلوانى » .

وألف أستاذه الشيخ « محمد حسنين العدوى » فى عام ١٩١٥ م — وكيل الأزهر والمعاهد الدينية فى ذلك الوقت — جمعية أدبية ، لتشجيع طلاب الأزهر على نظم الشعر وإجادة الكتابة ، فكان هو من أول

المنتمين إلى تلك الجمعية ، وأقامت الجمعية مسابقة شعرية ، فكانت قصيدة « زكى مبارك » فى مقدمة القصائد المقدمة للمسابقة .

ثم أقيمت مسابقة شعرية كبرى بين « الأزهر و مدرسة القضاء الشرعى و دار العلوم » . فكان « زكى مبارك » من أوائل مرشحى الأزهر وقد فازت قصيدته فوزا رائعا ، ثم نشرت بجريدة « المؤيد » ، وهى أول قصيدة تنشر له ، وكان فرحه بنشرها عظيما .

ومن أساتذته فى « الأزهر » ، الذين يذكرهم بالخير الشيخ « سيد المرصفى » ، وقد كان هـــذا الأستاذ يحترم « زكى مبارك » ، لاطلاعه وطموحه ، وفهمه للأدب فهما صحيحا . وقد جمع « زكى مبارك » من درس هـذا الأستاذ ثلاثين كراسا « هى أنفس مايملكه من ذكريات الأزهر » على حد تعبيره . وكان يحضر دروسه دائما ، وقد تأخر يوما لجلس خلف الصفوف ، وعندما بدأ بالدرس ولم يجد تلميذه « زكى مبارك » ، قال : أين زكى ؟ فلما أجابه ، قال للطلاب : « وسعوا له لعله ينفع « !...

وقد قال يوما لأحد مشايخ الأزهر : إنه يحزننى أن تظل مشيخة الأزهر غافلة عن تشجيع أبنائها ، وإنى لأخشى أن يضيع منا « زكى مبارك » كما ضاع منا « طه حسين » ...

وقد ظل وفيا لأستاذه « المرصفى » حتى بعد أن ترك الأزهر والتحق بالجامعة ، وكان يزوره فى بيته ، عندما أصبح أستاذا فى الجامعة وكان الشيخ

قد أقعده المرض فى بيته .

وقد كتب عنه « زكى مبارك » فصلا ضافيا فى كتاب البدائع ، بين فيه فضل هذا الأستاذ فى اللغة العربية والأدب العربى ومما قاله فى رثائه :

« فيأيها الرجل الذى عرفت بفضله أسرار اللغة العربية . واستطعت بفضله أن أرفع رأسى بين أساتذة الأدب وحملة الأقلام . . أيها الرجل ، أنا مدين لك بكل شىء فى حياتى اللغوية والأدبية ، ولا يزاحمك فى قلبى إلا إنسان واحد هو فقيد الأدب والبيان الشيخ « محمد المهدى » . . . . »

ومن أغرب ماحدث له — وهو طالب علم فى الأزهر — هذه الحادثة التى تدل على أن طالب العلم كان يلتهم طعامه فى الطريق حرصا على حضور الدرس . وكان طعاما لايفى بما يتطلبه جسم طالب العلم ، ولا يقاوم السهر فى غفوات الليل ، فهو يقول :

« فقد كنت فى ذلك العهد أحفظ زادى فى المحفظة ، محفظة الكتب وكان زادى فى كل يوم رغيفا جافا يابسا متجهم الملامح ، واتفق مرة أن ضاق الوقت ، فدخلت عند أحد الفوالين : لأغمس ذلك الرغيف فى مَرَق الفول النابت ، فهرست الرغيف بين راحتىّ مسرعا ، ثم نظرت فرأيت يدىّ تفيضان بالدم القانى ، دم الشاب المسكين الذى يريد أن ينهب الوقت ليحضر درس التوحيد بعد المغرب . . . . »

وبعد أن كافح « زكى مبارك » فى « الأزهر » عدة سنوات رأى أن

استمرار دراسته فى الأزهر غير مجد ، لمن يريد أن يدرس الآداب العالمية وغير مجد لمن يحمل قلبا متوثبا للمجد متطلعا إلى المغامرة فى ميدان الحياة ، فغادر « الأزهر الشريف » والتحق بالجامعة المصرية .

ومهما يكن من شيء فإن فضل الأزهر على « زكى مبارك » كان عظيماً ، ووجوده فى الأزهر جعله يتمكن من اللغة العربية ، وجعله يضرب بسهم وافر فى الآداب العربية القديمة الزاهرة . وبفضل « الأزهر » أخذ يصاول علماء « النجف » فى العراق على حد تعبيره . وظل وفيا للأزهر ورجاله ولم تكن حملاته المتلاحقة على مناهج الأزهر ونظامه إلا خطوة من خطوات الإصلاح التى يرجو معها نجاحا مطردا لهذا المعهد الدينى ، الذى شعت أنواره فى جميع البلاد الإسلامية ، وظل يحمى حمى الإسلام ، منذ نشأته حتى وقتنا هذا ، وسيبقى هذا المعهد متحديا التيارات الدخيلة التى ترمى إلى النيل من الإسلام .

فى الجامعة المصرية وكتاب حب ابن أبى ربيعة

اتصل «زكى مبارك» بالجامعة المصرية سنة ١٩١٣ م ، فوجد أن الجامعة لا تقبل الطالب الذى لا يحسن لغة أجنبية ، إلى جانب لغته العربية ، فصمم على دراسة اللغة الفرنسية ، وأعد لها العدة ، واستطاع أن يبرهن على ذكائه وطموحه وعمله المتواصل ، خلال السنوات الثلاث القادمة : وذلك بإتقانه هذه اللغة إتقانا عجيبا . وانتسب رسميا إلى الجامعة فى سنة ١٩١٦ م.

انتسب إلى الجامعة ، ودخل كلية الآداب ، فوجد هناك ما كان يتطلع إليه منذ زمن بعيد .

ثم ترك نظم الشعر لينصرف إلى العلوم الأدبية والفلسفية . وما كان ينظم الشعر إلاّ فى ثوراته النفسية ، كما يقول فى رسالة إلى صديق :

« وأنا مع هذا لا أنظم الشعر إلّا إذا جاشت النفس ، وفاض القلب ، بحيث لا أستطيع الفرار من شيطان القوافى والأوزان . . . »

وفى الجامعة المصرية اتصل بالشيخ « محمد المهدى » ، وهو أول من أخذ عنه الأدب فى الجامعة ، وكان بارا بأستاذه ، فكان بعد أن يلقى الشيخ « المهدى » محاضرته ويخرج ، كان «زكى مبارك» يرافقه حتى يصل إلى المحطة فيودعه ، وكان معجبا بهذا الأستاذ كل الإعجاب ، وكتب عنه فصلا طويلا

فى كتاب البدائع ، حلل فيه أدبه واطلاعه وتمكنه من اللغة العربية ، ودعوته إلى نشر اللغة الفصحى بين طبقات الشعب .

وعندما استقال أستاذه «المهدى» من الجامعة أقام الطلبة حفل تكريم له سنة ١٩١٨ م ، ألقى فيه «زكى مبارك» قصيدة قال فيها :

وما كانت الآداب إلا طرائفا	من الشعر أو مايستجاد من النثر
فأبرزها «المهدى» عذراء غضة	تأود تحت الحلى فى الحلل الخضر
مباحث لو غذى «زهير» بروحها	لأضحت قوافيه أرق من السحر
ولو فقه النيل المبارك كنهها	لحول ذياك المزيج إلى خمر

وفى عام ١٩١٩ أخذ «زكى مبارك» ـ وهو طالب ـ يلقى محاضرات فى الجامعة على أنها دروس تمرين تحت إشراف الدكتور «أحمد ضيف» ، وكانت محاضراته عن شاعر الحب والجمال «عمر بن أبى ربيعة» . وقد جاءت عبارة فى المحاضرة الأولى عدها بعض المستمعين — وعلى رأسهم الشيخ «عبد الجواد رمضان» — عبارة نابية ، وهى «أن الحب نفحة من نفحات النبوة» ، وقد ناقشوه فيها . وفى المحاضرة الثانية تعمد إيراد تلك العبارة وكان الأستاذ «عبد الجواد رمضان» قد استعد باستقدام بعض علماء الأزهر لمعاونته فى الهجوم عليه ، فضج الحضور ، وطالبوا بإيقاف «زكى مبارك» عند حده ، فتدخل الدكتور «ضيف» ، وهدأ الثائرين .

وعندما ما انتهى من محاضرته الثالثة والأخيرة جمع المحاضرات

الثلاث فى كتاب أسماه « حب ابن أبى ربيعه وشعره » ، وقد طبع هذا الكتاب ثلاث مرات ، وقد زاد عليه فى الطبعتين الأخيرتين أشياء كثيرة .

تكلم فى مقدمة الكتاب عن الأدب المكشوف والأدب المستور ، وذكر أن أدباء العرب الأقدمين تكلموا عن الأدب المكشوف ،وجاءوا بأخباره وطرائفه ، منهم : « أبو الفرج» ، « والجاحظ » ، « وابن قتيبة » .

وفى محاضرته الأولى تكلم عن حب« ابن أبى ربيعة » ، وهل هو حب صادق متين ، أم حب يعتمد على غرور الشباب ونزواته ؟ . . . وهو يرى أن حبه كان حبا من النوع الثانى ، أى كان يتهمه فى صدقه ، ورأيه فى ذلك أن « ابن أبى ربيعة » — أولا — كان حضريا وليس بدويا ، وإنما الصادقون فى الحب هم أهل البادية ؛ لأن الحضرى ينقل قلبه بين الملاح ، ولا يستقر على حال واحد . أما البدوى فيظل قلبه عالقا بمن يحب ، لا يحيد عنه ، ولا يمله .

ويقول هو عن «ابن أبى ربيعة» :« فما قصر نفسه على امرأة ، ولا وقف حبه على فتاة ، وإنما كان يتلمس الجمال بين مناسك الحج ، ويتلقط الحسن فى مسارح الظباء ؛ فيغشى الرياض الزاهرة ، عله يظفر بزهرة لا كالزهور ، ويقصد الأندية السارة ،عساه يسمع حديثا عن بعض الآنسات الحور ، بل ربما صدعن تجزيه بالحب حبا ، ورام من تجزيه بالقرب الصدود . . . »

ويرى — ثانيا — أن « ابن أبى ربيعة » كان مغرورا بجماله وشبابه ،

مفتونا بنفسه غاية الفتـــون ، وكان يذكر فى شعره أن النساء يتهافتن عليه ويطلبن وده ، ويرغبن في وصاله ، وهذه ليست صفة العاشق وإنما هي صفة المعشوق ! ...

ويرى — ثالثا — أن « ابن أبي ربيعة » كان يزعم التوحيد فى الحب ، بينما كان يتشبب تارة بـ « ليلى » ، وأخرى بـ « الرباب » ، ومرة بـ « عبده » ، وطورا بـ « زينب » ، و « النوار » ، و « عمرة » ، و « عثمة » ، وهذا التلون فى الحب يجعله مشتت القلب بين عدة نساء ، وهذا التلون ليس من علامات الحب الصادق الذى يجعل صاحبه باقيا على العهد ، صادقا فى الحب ، لا ينقل فؤاده من حب إلى آخر ؛ كما يفعل « عمر بن أبي ربيعة » .

وفى محاضرته الثانية هاجم « أبا الفرج الأصفهانى » مؤلف « كتاب الأغانى » ، وذلك لفهمه الخاطىء عن « عمر بن أبي ربيعة » ، فهو يريد أن يعرف كيف كان لشعره منزلة ، ولأسلوبه طابع خاص تميزبه بين الشعراء . وما أورده المتقدمون لا يبل غلة ، ولا يشفى غليلا فى هذا الباب ، بل كان المتقدمون يسردون سلسلة من الأوصاف التى جعلت للشاعر منزلة فى نفوس الجماهير ، فاذا هذه الأوصاف لا تكشف عن نفسية الشاعر ولا شعره وفيها من الغموض مايجعل القارىء يرتبك ويتيه فى مجاهـل ذلك الفهم الخاطىء ، وقد هاجم « زكى مبارك » طريقة « أبي الفرج » ؛ تمهيدا لإبداء رأيه فى نجاح هذا الشاعر ، بين شعراء الغزل والتشبيب فقال :

« إن السنين صحيفة التي كتبها صاحب «الأغاني» عن «ابن أبي ربيعة» لم تكن لتفهمنا حقيقته ، وتعرفنا شخصه ؛ إذ كانت موضوعة على غير نظام ، مبنية على غير أساس ، وإن بنوتنا لأسلافنا ، وتبعيتنا لهم لا تحولان بيننا وبين تكميل ما لم يكملوه ، وتهذيب مالم يهذبوه ! . . .

ثم راح يناقش « أبا الفرج » نقاشا حادا ، وأخذ ينقض الأوصاف التي جاء بها عن مكانة « ابن أبي ربيعة » ، وأخذ رأى « أبي الفرج » ينهار شيئا فشيئا حتى وصل إلى نهاية الفصل . فإذا بكلام صاحب « الأغاني » أصبح كالطلل البالي ، لا قيمة له في ميزان النقد والتحليل . وكان بودي إيراد الشواهد ؛ لأطلع القارىء الكريم معي على قيمة البحث ، بيد أنني رأيت أن إيرادها يطيل البحث ، ويستطيع القارىء أن يطلع على هذا النقاش البديع في المحاضرة الثانية في « كتاب حب ابن أبي ربيعة » .

وبعد أن انتهى من نقاشه وبسط رأيه في كلام « أبي الفرج » وكشف التناقض الواضح في هذا الكلام ؛ — جاء برأيه الخاص في المحاضرة الثالثة - يرى « زكي مبارك » أن « ابن أبي ربيعة » نال تلك المنزلة بين الشعراء لنجاحه — أولا — في وصف النساء ، مما جعل الملاح يتهافتن على شعره ، فإذا سمعت إحداهن شعرا له ، في إحدى أخواتها من بنات حواء ، ودت أن تكون هي الموصوفة الثانية ، فكان من جزاء ذلك أن نبه ذكره وطار شعره في الخافقين . وكان ذلك مما يشجعه على كثرة الوصف وزيادة التغزل ،

والإكثار من أخبار الملاح .

والأمر الثانى هو حسن تلطفه فى مخاطبة الحسان ، وتودده لهن ، والغوانى ضعيفات القلوب ، يأنسن بكل مارق من الحديث ، وجاء بشاهد نقتطف منه الأبيات التالية :

يفرح القلب إن رآك وتستعبر عينى إذا أردت ارتحالا
ولئن كان ينفع القرب ما أزداد فيما أراك إلا خبالا
أنت عيشى، نعم ، ورؤيتك الخلد ، وكنت الحديث والأشغالا
حلت دون الفؤاد واختارك القلب وخلى لك النساء الوصالا
وتخلقت لى خـــلائق أعطتك قيادى فـــا ملكت احتمالا

وينزل هذا القول وأمثاله على قلوب الملاح نزول الماء البارد الزلال فى أيام الهجير ، فيتنافسن فى طلب رضاه ، ويتباغضن للاستئثار بأغاريده الرائعة .

والأمر الثالث الذى جعل شعره يغزو القلوب ويستحوذ على الألباب، هو لحظات اللقاء، وساعات الوصال ، وهذا أخطر فنون الشعر ، وقد أثار ضجة فى الأوساط المحيطة ، حتى حرم بعض الناس دخول مثل هذا الشعر إلى بيوتهم . ومن ذلك قول « ابن جريج » : «ما دخل على العواتق فى حجالهن شئ أضر عليهن من ابن أبى ربيعة . . . »

وقد فتن بشعره الشبان فتونا شديدا أكثر مما فتن به النساء. وقد قال « الفرزدق » له ، عندما سمع أبياتا له : أنت والله يا « أبا الخطاب » أغزل

الناس، لايحسن الشعراء أن يقولوا مثل هذا الشعر، ولا أن يروامثل هذه الرقة . . . » .

وقدظل « ابن أبي ربيعة » في غزله وتشبيبه ومجونه ، حتى بلغ الأربعين ثم هجر الشعر وتنسك ، وأخذ يكفر عما فعله في أيام الشباب ، وأصبح هذا الشاب الساحر بعد أن تقدمت به الأيام سخرية للملاح ، بعد أن كن يتهافتن على وداده والتقرب إليه . وقد حلل « زكي مبارك » هذه الناحية تحليلا رائعا مؤثرا ، ومن قوله :

« وعاد الناس يقولون هذا هو « ابن أبي ربيعة » الذي كانت تعضه النساء وهو يطوف بالبيت ، وهذه هي الثريا التي كانت تحسدها الأزهار في الرياض والنجوم في السماء ، وهذه معالم « ابن أبي ربيعة » ومعاهد شبابه . قد عادت (صماً خوالد ما يبين كلامها) » [1] .

وقد أضاف إلى كتابه فصولا أخرى في الطبعتين الثانية والثالثة ، وهي « أخبار الملاح » وهن « عائشة بنت طلحة » و « سكينة بنت الحسين » و « الثريا بنت على » و « زينب بنت موسى » و « فاطمة بنت عبد الملك » و « هند بنت الحارث » .

وكذلك هذه الفصول :

« تأثير « ابن أبي ربيعة » في شعراء اللغة العربية » و « مصعب بن عبدالله

---

(١) اقتبس « زكي مبارك » هذه الشطرة من شعر « لبيد » والبيت الكامل هو :

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صما خوالد ما يبين كلامها

الزبيرى » والجوانب الجدية فى حياة « ابن أبى ربيعة » و « الملح والفكاهات » .

ولا نهى هذا الفصل قبل أن نشير إلى أخبار « سكينة بنت الحسين » ، وقد جزم المؤلف بصحة أخبارها مع « ابن أبى ربيعة » ، بالرغم من أنه قال فى آخر الحديث :

« وقد لاحظنا أنه لايبعد أن يكون بعض هذه غير صحيح ، فقد ذكر صاحب « الأغانى » فى موطن آخر أن البيت قالت « سكينة » ، روى : قالت « سعيدة » ، وأن المراد « سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف » ، وإنما غيره المغنون فجعلوا « سكينة » مكان « سعيدة » . . . الخ . . . »

وقد ناقش الأديب العراق الأستاذ « توفيق الفكيكى » الدكتور « زكى مبارك » فى كتابه « سكينة بنت الحسين » ، وبين حقيقة الغناء فى الإسلام ، والأدلة القرآنية والأحاديث النبوية الواردة فيه ، وأقوال العلماء على اختلاف نزعاتهم وذكر سر الدس فى الروايات ، واستنكر أن تكون « سكينة » — وهى التى تربت فى بيت النبوة — تخالف روح الإسلام ، وتتجاهل تعاليم جدها رسول الله ، ثم تجرى مع اللاهيات والعابثات فى تصيد أخبار الشعراء والمغنين .

ومن الأدباء الذين استنكروا رواية « الأغانى » عن « سكينة بنت الحسين » الأديب المصرى الأستاذ « محمد رجب البيومى » ، وقد نشر بحثا فى « مجلة الأزهر » المصرية ، ناقش فيه الكتاب المحدثين الذين يعتمدون على رواية

« الأغانى » فى هذه السيدة الجليلة . وصاحب « الأغانى » نفسه صرح بأن : « قالت سكينة » يروى : « قالت سعيدة » ، أما أبيات « عمر بن أبى ربيعة » فهى:

قالت « سعيدة » والدموع ذوارف ... منهـا على الخدين والجلباب
ليت « المغيرى » الذى لم أجزه ... فيما أطال تصيـدى وطلابى
كانت ترد لنا المنى أيامنـا ... إذ لا نلام على هوى وتصابى
خبرت ما قالت فبت كأنما ... يرمى الحشا بنوافـذ النشاب
أ « سعيد » ما ماء الفرات وطيبه ... منى على ظمأ وفقـد شراب
بألذ منك وإن نأيت وقلما ... ترعى النسـاء أمانة الغيـاب
إن تبـذلى لى نائلا أشفى به ... داء الفؤاد فقـد أطلت عذابى
وعصيت فيك أقاربى وتقطعت ... بينى وبينهم عرا الأسبـاب
فتركتنى لا بالوصال ممتعـا ... منهم ولا أسعفتنى بشـراب
فقعدت كالمهريق فضلة مائه ... فى حر هاجـرة للمع سراب

ونختتم هـذا الفصـل بـكلام للدكتور « طه حسين » فى الثناء على هذا الكتاب :

« فرغت من رسالة صغيرة ، ولكنها قيمة ممتعة للدكتور « زكى مبارك » خريج الجامعة المصرية ، تناول فيها شعر « عمر بن أبى ربيعة » ، فدرسه من بعض نواحيه درسا حسنا يسرنى أن أهنئه به ، ويسرنى أيضا أن أنتهز هذه الفرصة لتسجيل ما للجامعة المصرية من فضل على عقول الشباب » .

فى المعتقل

اندلع لهيب الثورة الوطنية سنة ١٩١٩ م ، وأصبح الشعب المصرى ثائرا على الاستعمار والمستعمرين ، وقامت الثورات فى جميع أنحاء مصر ، وقامت المظاهرات هاتفة بتحرير البلاد من النير الأجنبى ، بعد أن طغى الدخيل وجار فى البلاد ، فقوبلت الثورة بالإرهاب وإطلاق الرصاص على المتظاهرين الأحرار ، واعتقل زعماء الشعب فثارت ثائرة الأحرار ، وانطلقت الأقلام من محابسها ، مشاركة الشعب فى حركاته الوطنية .

وكان « زكى مبارك » طالبا فى الجامعة المصرية ، فثار مع مواطنيه ، وأخذ يخطب فى الثائرين ، ويراسل الصحف بشعره ونثره ، مهددا الاستعمار بالويل والثبور .

وكانت أكثر الاجتماعات تعقد فى « الأزهر الشريف » مهد الثورة ، وكان « زكى مبارك » ابن الأزهر ، يوالى نشاطه الوطنى فى تلك الاجتماعات ، وكانت خطبه الحماسية باللغة الفرنسية تقابل بكثير من الإعجاب والاستحسان من قبل الأحرار .

وكان إبان الثورة عضوا فى الحزب الوطنى ، وأراد الوفديون استمالته إلى حظيرتهم ، فأوصوا من يقنعه للالتحاق بالوفد ، فدعاه بعضهم إلى طعام الفطور فى « رمضان » ، وبعد تبادل الأحاديث المختلفة عرض عليه أن الوفد

يدفع لكل خطيب من خطباء الثورة عشرة جنيهات مصرية ، وطلب منه أن ينضم إلى الوفد فاستاء من هذا العرض وقال :

« كنت أنتظر أن أكون أكبر من هذا فى نفسك ، أنا أخدم وطنى بعقيدة صحيحة ، ولا أقبل درهما فى خدمة وطنى » ، فاعتذر ، وقبل « زكى مبارك » اعتذاره .

وأقيم احتفال فى منزل « محمود سليمان » فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٩ م ، وقد وقف « زكى مبارك » فى الاحتفال ، وألقى قصيدة اهتز لها الجمهور ، وأحدثت ضجة بين الثائرين الأحرار نقتبس بعض أبياتها :

لئن لم يبن طوعا عن النيل غاصب   نرى لبثه فينا أضر من الكفر

لأستمطرن الشعب سخطا ونقمة   على ماجنت يمناه فى مصر من نكر

فيغضب مغوار ويعبس فاتك   ويفزع موتور إلى سفه الشر

ويمسى رجال النيل أسدا غواضبا   تخايل فى برد من الفتك والزأر

لقد خاب ظن القوم إن كان غرهم   جنوح البحور الطاغيات إلى الجزر

فقد تزأر الآساد وهى روابض   كما يزفر الماء المحجب فى القدر

أبى الله أن تفنى وفينـــا بقية   يعز عليها أن نصفد بالأسر

فكيف يسام الخسف شعب معزز   له مالأهل الغرب إن هب من أزر

فكفوا بنى « التاميز » عن نهب أنفس   تحاول أن تحيا مع الأنجم الزهر

وبعد أن رأت السلطة العسكرية أن « زكى مبارك » يؤلب الجماهير ،

ويزيد النار ضراما ، قررت اعتقاله إلى جانب مئات من الشباب الثائر ،
فألقى عليه القبض ، ونشرت « الأهرام » فى يوم الأحد أول يناير ١٩٢٠ م
الخبر التالى :

« اعتقل « البوليس » صباح أمس الأستاذ « زكى مبارك » ، وهو شيخ
معروف بذلاقة اللسان ، والنظم الرشيق ، وكان له فى كل اجتماع كلمة يلقيها
أو قصيدة يتلوها . . . » .

أصبح « زكى مبارك » معتقلا ، وأخذ يجوب الأرض من معتقل إلى آخر .
وأخذت السلطات الإنجليزية تضغط على المعتقلين من أرباب الفكر ،
وتحاول أن تأخذ منهم تعهدا يقضى بعدم الاشتراك فى الثورة ، ومقابل
هذا التعهد يطلق سراحهم . وقد أرسلوا من يغرى « زكى مبارك » بالإفراج
عنه بعد أن يوافق على ذلك الشرط ، فأبى وصمم على المبيت فى المعتقل ،
ورأى السجن أحب إليه مما يدعونه إليه .

وقد كتب خطابا من السجن إلى أحد أصدقائه جاء فيه :

« . . فقد فكر القوم فى مساومتى أول لحظة وطئت فيها سكنة
« قصر النيل » ، ولكنى أقذيت عيونهم حين أريتهم كيف يطيب الشقاء فى
سبيل البلاد ، وأقسم لو سلم المصريون جميعا ، وخرج « مصطفى كامل » من
قبره ، فصافح الإنجليز لما كان فى ذلك ما يزحزحنى قيد أنملة عن معاداتهم ،
حتى يكون الجلاء . وأعيذك أن تحسب أن جلاءهم عن مصر — إن تم وبحن

أحياء — ينسينا ما فعلوا بنا وبأهلينا منذ كان الاحتلال » .

والجدير بالذكر أن « زكى مبارك » كان طالبا فى الجامعة المصرية أثناء الاعتقال، ومع أنه كان حريصا على نيل شهادة « الليسانس » من « كلية الآداب » . فضل البقاء فى المعتقل على مواصلة الدراسة ، وهو يعلم أن زملاءه سيسبقونه إلى هذه الشهادة .

وكانت السلطات العسكرية قد قررت لكل معتقل سبعة عشر قرشا فى اليوم ، فكان ينفق أكثرها فى شراء الكتب ، ويظل جائعا أكثر الأوقات ، وفى هذا الدليل القاطع على انه كان يفضل جوع المعدة على جوع العقل والقلب .

ولما أعيت رجال السلطات العسكرية الحيل ، ولم يستطيعوا أخذ تعهد عليه بالابتعاد عن الحركات الوطنية ، ولما وجدوه وحيدا فى المعتقل بعد خروج زملائه ؛ — أطلقوا سراحه .

دكتور في الآداب وكتاب الأخلاق عند الغزالي

انتظم «زكي مبارك» بعد خروجه من المعتقل في الجامعة مرة أخرى، وأخذ يكافح الأبطال لإنهاء دراسته. ولكنه رسب مرتين في الجغرافيا، قبل أن ينال شهادة «الليسانس» في العلوم الأدبية والفلسفية سنة ١٩٢١ م.

وما كاد يحصل على هذه الشهادة حتى فكر في مواصلة الجهاد العلمي؛ لينال شهادة «الدكتوراه». فأخذ يصل الليل بالنهار للوصول إلى غايته. واستطاع بعد مرور ثلاث سنوات أن يقدم رسالته عن «الأخلاق عند الغزالي» للجامعة المصرية لنيل «الدكتوراه». وقد نوقشت بتاريخ ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ م. وكان أعضاء اللجنة الشيخ «عبد الوهاب النجار» والدكتور «أحمد ضيف»، والأستاذ «عبده خير الدين».

وقد كانت مناقشة الرسالة مهيبة لأن «زكي مبارك» هاجم «الغزالي»، وانتقد آراءه بقسوة وعنف، حتى أن الأستاذ «محمد جاد المولى» وكان عضواً في لجنة الامتحان، أخذ يتشدد في مهاجمة الطالب، ونقد آرائه في «الغزالي»، مما أثار الجمهور على «زكي مبارك». والأستاذ «جاد المولى» كان يعرف «زكي مبارك» من كتاباته في الصحف والمجلات، ومقالاته التي يهاجم فيها الأدباء بعنف وشدة، وعندما رأى هجومه على «الغزالي» بتلك الصورة ظن أن هذا الهجوم يشبه تلك الهجمات التي يشنها على المعاصرين،

من الأدباء؛ للشهرة والظهور . وقد هاجم «زكي مبارك» بعض آراء الغزالي؛ «لأنه يريد أن يبين أن العلماء الأولين كانوا عرضة للخطأ، والصواب، وعندما ينقد الناقد بعض آرائهم، لا يريد من وراء ذلك إلا إظهار الحقائق التي غابت عن أولئك العلماء، وهم يتصدون لدراسة الفلسفة الإسلامية في ذلك الوقت .

وقد أثارت مناقشة الأستاذ «جاد المولى» جمهور المستمعين في قاعة الامتحان، وعلى رأسهم الشيخ «عبد المجيد اللبان» . وبعض أساتذة الأزهر الشريف، ولولا حكمة رئيس لجنة الامتحان الدكتور «منصور فهمي» لحدث مالا تحمد عقباه؛ إذ أخذ يهدىء الجماهير بلباقة حتى هدءوا . وقد كانت عاقبة هجوم الأستاذ «جاد المولى» في قاعة الامتحان أن هيج على الطالب بعض الأدباء، فأخذوا في مناوشته في جريدتي «المقطم» و«الأخبار» وعلى رأسهم الشيخ «يوسف الدجوى» والشيخ «أحمد مكي» .

ورغم ماحدث في قاعة الامتحان من هرج ومرج، فقد منحته لجنة الامتحان درجة «الدكتوراه» . بتقدير «جيد جداً» للطالب «زكي مبارك» وهو خامس طالب ينال هذه الرتبة من الجامعة المصرية .

منح «زكي مبارك» درجة «الدكتوراه» في الآداب والفلسفة، ونال ماتمناه، ووصل إلى الهدف الذي كان يصبو إليه، منذ أمد بعيد، منذ ماغادر «الأزهر الشريف»، وأصبح الفلاح الذي ترك الفأس والمحراث دكتوراً

فى الآداب ! وأصبح ابن الريف يحمل أرفع إجازة علمية ، وفيضا زاخراً من العلوم الأدبية والفلسفية ، واطلاعاً واسعاً فى اللغة العربية والأدب القديم ، الذى حصل عليه من «الأزهر» .

وما كاد ينتصر فى هذا الميدان ، حتى رأى الصحف والمجلات تهاجمه وترسل إليه النقد المر واللوم المتلاحق على ماجاء فى رسالته عن «الغزالى» .

فشمر عن ساعد الجد وامتشق قلمه كعادته ؛ ليرد على الناقدين بالمثل ، ويكيل لهم الصاع صاعين وهـــو الذى كان فارس النقد يصول قلمه فى الصحف والمجـــلات ، ويلقى الرعب فى قلوب الأدباء ولكن أستاذه الدكتـــور «منصور فهمى» نصحه بالرفق والتروى بخطاب قيم ، أثبته «زكى مبارك» فى مقدمة كتاب الأخلاق عند «الغزالى» ، قال فيه :

« وأنت يا أخى درست مؤلفات « الغزالى » وفهمتها وحللتها وبينت ما فيها من الخطأ والصواب ، فاذا ينقم الناس منك ، وقد ذكرته بالخير حين رأيت أن يذكر بالخير ، وذكرته بالملام حين رأيت أن يذكر بالملام ، وما كان « الغزالى » بأكبر من أن يخطىء ، ولا كنت أنت بأصغر من أن تصيب .

لقد علمتنا رسالتك بجانب ماتناولته من الأبحاث العديدة ، أننا قطعنا شوطا بعيدا فى سبيل الآراء الحرة ، المدعمة بالقوة والنهوض ... وإن كنا نأسف على أنه لاتزال هناك صدور ضيقة ، يؤذيها الهواء الطليق . ونأسف كذلك على أن عدد هؤلاء كثير ، وعدد المفكرين قليل .... »

واختتمها بقوله : وحذار أن تقاطع أحدا من أساتذتك وزملائك فى « الأزهر الشريف » ، فإنكم جميعا طلاب علم وأنصار حق ، والتوفيق بينكم ليس بالأمر المحال . . . . »

وهذه الرسالة طويلة تنبض بالحكمة ، والعقل الناضج ، والرأى السديد ، والنصيحة الغالية . وقد رد عليها « زكى مبارك » قائلا :

« أ كرر الشكر لسيدى الأستاذ الدكتور « منصور فهمى » ، وأؤكد له أن بينى وبين علماء « الأزهر » عرا لاتقدر على فصمها الليالى ، ولن ينسى أحد أنى مدين لأساتذتى فى « الأزهر » ، وإن خروجى عليهم ضرب من العقوق ، ونكران الجميل . . . . » .

وهكذا استطاع هـــذا الأستاذ الجليل الدكتور « منصور فهمى » ، بحكمته ، ورجاحة عقله ، أن يقرب وجهات النظر بين « زكى مبارك » والثائرين على آرائه . وكيف قبل هذا الطالب البار « زكى مبارك » نصيحة أستاذه وعمل بها ، فتجنب شيئا كثيرا من اللوم والنقد .

وهكذا نرى أن الأمور تحل بالحكمة إن أراد الناس أن يجروا وراء الحكمة وصالح الأمور .

وسبب ثورة الجمهور هو أن « زكى مبارك » ناقش آراء « الغزالى » بشدة وقسوة ، ومما قاله فى مقال نشره بعنوان « الإسلام والأخلاق » : «وأنا لا أ كتم القارىء أنى حملت على « الغزالى » حملة شديدة ، ورميته

بجهل أسرار الدين ، وسخرت من الآداب التى وضعها الله المتوكل ، حين يخرج من بيته : إذ يدعوه إلى ألا يترك فى البيت متاعا يحرص عليه السراق، وإلى ألا يحزن إذا سرق متاعه ، بل يفرح إذا أمكنه . . . »

ثم راح يهاجمه ويتهكم على هذا الرأى ، فثار الجمهور مدعيا أن الإسلام دين أخلاق ولا بأس مما يراه « الغزالى » ، فقال « زكى مبارك » : « وهو قبل ذلك دين فتح وامتلاك ، وليس من الأخلاق فى شىء أن يجرد المرء بيته ، حتى لا يبقى فيه متاع يحرص عليه السراق » .

وقد غضب بعض الحاضرين لنعته الإسلام بدين الفتح والامتلاك ، فراح يبين هذه الحقيقة قائلا :

« الدين الإسلامى دين فتح رضيتم أم كرهتم ، وللفتح شروط وآداب سنها الدين الحنيف ، وأنتم حين تنفرون من كلمة الفتح إنما تجارون الأجانب الذين يتوددون إليكم بوصف الإسلام بالقناعة والرضى بالقليل، وهذا خطأ صراح ، فإن الدين الإسلامى أبعد الأديان عن الزهادة ، وأبغضها للخمول . . . »

ثم أخذ فى مهاجمة الفهم الخاطىء للأخلاق قائلا :

« أفتحسبون أن قوله عليه السلام : (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، معناه أنه جاء لينشر علينا ويذيع فينا ، تلك المبادىء السقيمة التى دافع عنها « الغزالى » ، وأمثاله ، حين تكلموا عن التوكل والصبر والخمول ؟ . . .

وتابعهم فى ذلك مع الأسف علماء هــذا الجيل ، فى غير خجل ولا استحياء ؟ . . . » .

واختتم المقال بقوله :

« من أجل هـذا ترونى أنكر أن تكون (الأخلاق) فى الإسلام معناها الرضى بالموجود وإن قل وهان ، ومن أجل هذا عارضت « الغزالى » بعد ما عاشرته فى مؤلفاته بضع سنين ، فماذا تنقمون منى بعد هــذا البيان ؟ . . . »

وقد هنأه الشاعر السيد « حسن القاياتى » بقصيدة قال فيها .

ماذا اعتزمت وما نويتــه	العــلم أيسر ما وعيتــه
اليـــوم رحت بغبطة	فاهنأ « زكىُّ » بما جنيتــه
إن الجحود مسود	أطربتنى لمــا نعيتــه
لا تشك زفرة حاقــد	من صــدره أنت اشتريته
كم يحســدون محمدا	فى علمه . فهل اجتديته ؟ . . .
ته بالكتــاب فانه	عن قلب أواب رويتــه
للعــلم عرش لم تزل	تســبى النهى حتى رقيتــه

ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ « جاد المولى » الذى هاجم « زكى مبارك » ، وأثار تلك الضجة ، عاد فغير رأيه فيه ، كما سترى فى الفصل الذى سنتكلم فيه عن كتاب « التصوف الإسلامى » .

الى باريس

لم ينقطع «زكى مبارك» عن الكتابة والتأليف، بل واصل جهاده بثبات وإقدام؛ لأنه لم يكن يهدف إلى نيل الدكتوراه فحسب، بل كان همه أن يصبح إماما من أئمة اللغة العربية؛ لذلك رأيناه غادر «الأزهر»، والتحق «بالجامعة المصرية»، ولما نال شهادتها الأولى، واصل سيره بقوة حتى نال الدكتوراه.

ثم أخذ يكافح فى ميادين العلم حتى عين مدرسا مساعدا فى الجامعة المصرية فى أواخر سنة ١٩٢٥ م، وكان يترجم للمسيو «كازانوفا» المستشرق الفرنسى، والأستاذ فى الجامعة المصرية، إلى جانب دروسه التى يشرح فيها كتاب «مغنى اللبيب» لطلبة كلية الحقوق، بطلب من الدكتور «طه حسين».

ثم تمضى الأيام، و «زكى مبارك» يتشوق إلى مزيد من العلم فيتطلع إلى «باريس» وإلى «جامعتها السوربون» التى درس فيها أكثر أساتذته، وهذه العبارة — التى تثبتها هنا بقلمه — دليل واضح على ظمئه وتشوقه للدراسة فى الخارج فهو يقول:

«أما البعثات العلمية ... ويلاه ماذا أقول؟... اللهم لا أتمنى قبل أن

أرى بعيني كيف يدرس العلم فى الممالك ، التى أصبح أهلها سادة الأمم وأساتذة الشعوب ....

وبلغت هذه الرغبة أوجها سنة ١٩٢٧ م ، فغادر مصر إلى باريس لبلوغ الهدف الذى رسمه لنفسه منذ أمد بعيد .

وأول ما وقعت عيناه على « السوربون » أصابته الدهشة ؛ لأنه عندما كان يكتب مقالاته بأمضاء « الفتى الأزهرى » فى إصلاح « الأزهر » ، اقترح أن تنشأ حديقة أمام « الأزهر » وحديقة فى فنائه ؛ لكى يكون منظر الأزهر رائعا خلابا ، أسوة « بجامعة السوربون » فى « باريس » ، ومضت الأعوام على اقتراحه حتى قدم « باريس » فرأى « السوربون » فدهش مما رأى ، وقال :

« ياعجبا . . ما الفرق إذن بين « جامعة الأزهر » و « جامعة باريس »؟ . . أما كان يستطيع الفرنسيون الكسالى أن يغرسوا فى فناء « السوربون » شجرة أو شجرتين ؛ ليصح ظنى فيهم ، ولتصـــدق المقالات التى كتبتها فى جريدة « الأفكار » ، وأثبتها فى كتاب « البدائع » ؟ . . .

وقد استبشر خيراً عندما هبط إلى « باريس » . فرأى رسالة باللغة الهولندية نشرها — عن كتابه « الأخلاق عند الغزالى » — الدكتور « سفوك » ، وعندما قابله المسيو « ماسينيون » أخذ يهنئه على ما وصل إليه من مجد ، جعل الدكتور « سفوك » يكتب عنه تلك الرسالة باللغة

الهولندية . . . وكان هذا النصر العلمي حافزاً له على مواصلة الجهاد ، وحمله النفس على الصبر والكفاح في ميادين العلم .

كان يقيم في أول الأمر أربعة أشهر في « باريس » ، يدرس فيها ويفيد من البيئات الأدبية هنـــاك ، ثم يرجع إلى القاهرة ليجمع من التدريس والصحافة ما يساعده على الاستمرار في دراسته ، ثم صمم نهائياً على البقاء في باريس ، مكتفياً بما يحصل عليه من كتاباته في الصحف . ويقول هو :

« كنت أشطر العـام شطرين ، أنضى شطره الأول في « القاهرة » حيث أؤدي عملي ، و أجني رزقي ، وأقضي شطره الثاني في « باريس » كالطير الغريب ، أحادث العلماء ، وأستلهم المؤلفين : إلى أن ينفد ما ادخرته أو يكاد ، ثم صممت على أن أنقطع إلى الدرس في « جامعة باريس » حتى أنتصر أو أموت . . . » .

وهنا تتجلى « صامية طالب العلم والمعرفة بأجلى مظاهرها . . . كان أستاذاً مساعداً في الجامعة فترك وظيفته ، لينقطع إلى الدراسة وكان يحصل على مورد يقيه متاعب الأيام ، فتنازل عنه ، ترك عمله في « الجامعة » ، وهو يعلم أنه مقدم على أيام ستتعبه وتضنيه . وتزيده هماً على همّ .

انتظم « زكي مبارك » في « جامعة باريس » ، وأخذت متاعبه في الازدياد . كان عليه أن يصل الليل بالنهار لمواصلة دراسته وإمداد الصحف بما يكتبه ؛ ليستطيع الإنفاق على نفسه .

وهو يصور هذه المتاعب قائلا :

« وكان أصعب تلك المتاعب هو هجرتى إلى « باريس » ؛ فقد أقمت فيها سنين كانت من أعجب السنين . . . »

إن هذه العبارة تصور حياته على حقيقتها ، فقد كان مشتت الأوقات بين دروس الجامعة وبين سن القلم ، ولكن من يتتبع أنباء غرامياته الموزعة فى كتبه ، يتصوره شابا لايهمه من دنياه غير الجرى وراء لذات الشباب ومسرات الحياة ، وفى الحقيقة أنه كان مكتويا بواجباته الكثيرة ، وسنبين شرح هذه الحقيقة عند الكلام عن غرامياته فى فصل قادم .

ووجوده فى « باريس » جعله تصور المجتمع الباريسى تصويرا صادقا ، فيه من فتون وضلال ، وهدى وغى ، وثقافة ومجون ، وتكلم عن التعليم فى فرنسا والحياة الأدبية ودراستها ، والبنائين فى باريس ، وعن سهراته فى قهـوة الجامع « فى باريس » ، وفى كتاب « ذكريات باريس » تصوير جميل للبيئة الفرنسية .

وتكلم عن الشباب الذين يذهبون إلى « باريس » للدراسة ، فتغويهم « باريس » ، فيرجعون إلى وطنهم ، وهم مجللون بأردية الفشـل والعار ، فيقول :

« فكم من شاب أسلم شرفه وعرضه لامرأة بغى ، فى أول ليلة دخل فيها « باريس » ، وكم من شاب جاء « باريس » ، ليتعلم ، فظل جاهلا ، ثم

عاد إلى أهله يحمل أبشع وأوبأ ما عرف الطب من جراثيم الأمراض! . . »

وهذه المشكلة هي مشكلة جميع البيئات الفاتنة ، وقد رأينا كثيرا من الشباب الذين يدرسون في الخارج، يعودون إلى أهليهم، بسلوك شاذ، وطباع شاذة وأخلاق منحطة ،يأنف منها الوحش، وقد كانوا قبل سفرهم في طهر الملائكة .

ووجوده في « باريس » جعله يحن إلى « مصر » ، وقد نظم قصيدة أهداها إلى صديقه السيد « حسن القاياتي » ، قال فيها :

يا جيرة « السين » يحيا في مرابعكم — فتى إلى « النيل » يشكو غربة الدار
جنت عليه لياليه وأسلمه — إلى الحوادث صحب غير أبرار
أحاله الدهر في لأواء غربته — روحا معنى وجسما نضو أسفار
يسعى إلى المجد ترميه مخاطره — بنافع من شظاياها وضرار
عزاؤه أن عقبى كل عادية — يشقى بها الحر إكليل من الغار

كان « زكي مبارك » مغرما بمهاجمة آراء أهل الفكر ، إن رأى فيها ما يدعو للهجوم ، وفي باريس هاجم آراء المستشرق الفرنسي « مرسيه » المدرس في « السوربون » ، فثارت ثائرته « وأخذ يرد مجهات الفتى المصري الثائر ، ولكن « زكي مبارك » رد عليه بالمثل ، وكانت بينهما خصومة أدبية ، تحدثت عنها « المجالس الأدبية ، في « باريس » » .

وكانت آراؤه تمتاز بالابتكار والطرافة ، فأخـــذ يجله أساتذته في

« السوربون » ، وفى مناقشته مع الدكتور « طه حسين » نقرأ له هـــذه الكلمات :

« واتصلت بالمسيو « مرسيه » ، ففرضت عليه آرائى فرضا ، واتصلت بينى وبينه الخصومة فآذانى إيذاء شديدا ، ولكن قناتى ظلت صلبة واستطعت أن أقوض كبرياءه فى عقر بيته ، وفوق كرسى « السوربون » ، ولم تمر هذه المعركة بلا غنيمة ، فقد وقف المسيو « ما سينيون » يوم أديت امتحان الدكتوراه ، وقال : « إننى حين أقرأ أبحاث « طه حسين » أقول ، هـــذه بضاعتنا ردت إلينا ، وحين أقرأ أبحاث « زكى مبارك » أشعر بأنى أواجه شخصية جديدة ... »

وبعد خمس سنوات من الكفاح المتواصل استطاع أن يسجل نصرا جديدا كان ينتظره ويتطلع إليه منذ أمد بعيد ، فنال الدكتوراه بدرجة مشرف جدا بكتابه القيم « النثر الفنى فى القرن الرابع » ، الذى قدمه باللغة الفرنسية إلى جامعة باريس ، ونوقش بتاريخ ٢٥ إبريل سنة ١٩٣١ م أمام الجمهور .

كتاب النثر الفنى

ماكاد «زكى مبارك» يفوز ذلك الفوز الباهر فى امتحان «الدكتوراه» بالسوربون «حتى بادر أساتذته بأقامة حفلة تكريمية له ، بمعهد الدراسات الإسلاميـــة .

وتلك الحفلة التكريمية تدل على المنزلة السامية التى احتلها هذا الشاب المصرى الفلاح فى نفوس أساتذته فى الجامعة . وقد أقيمت له تلك الحفلة بعد أن رأى رجال العلم فى «السوربون» أن هذا الشاب يجب أن يحترم؛ لأنه كان حرا فى أفكاره فأن صادف رأيا قويما ، أثنى عليه وزينه للقراء. وإن رآه بحاجة إلى تمحيص هاجمه بقوة ، وأظهر للناس نواحى الضعف فيه . وقد رأينا فى فصل سابق كيف هاجم «حجة الإسلام الغزالى» ، ورأيناه فى الفصل الماضى كيف يهاجم أحد أساتذته فى السوربون وهو المسيو «مرسيه» . حتى أصبحت بينهما خصومة أدبية تحدثت بها مجالس الأدب فى «باريس» .

وهذه الحرية فى الفكر هى التى تجعل الأديب باحثا نزيها ، يطلع على الجماهير بأحدث الآراء والأفكار ، فيحترمه قراؤه ، ويقبلون عليه بشغف زائد . وقد كان «زكى مبارك» محبوبا من القراء ؛ لأنه كان له فى كل يوم فكرة جديدة تسر القراء ، ويجدون فيها متعة وفائدة .

وأقامت له الجمعية المصرية فى «باريس» فى مساء ذلك اليوم حفلة تكريمية أيضا، أسوة بالحفلة التى أقامها أساتذته فى «السوربون».

وعندما ظهر الكتاب فى طبعته العربية، أقيمت له حفلة تكريمية بالقاهرة، خطب فيها كثير من رجال الأدب فى مصر، ويقول فى ذلك:

«إن الذين اشتركوا فى تكريمى تعاونوا على إنقاذ رجل كان يقتله ما توهمه فى زمانه من غدر وعقوق، فكان صنيعهم صنيع الطبيب الموفق حين يأسو العليل!...

وما رأيت ولا رأى الناس أصفى من تلك الليلة التى اجتمع فيها صفوة رجال الأدب؛ لتكريم مؤلف «النثر الفنى»، وكان فى ذلك درس كنت محتاجا إليه أشد الاحتياج... كنت أحب أن أجد من يقنعنى بأن أمتى ترعى أبناءها رعاية كريمة... أحب أن أطمئن إلى أن الإخلاص قوة عظيمة تزلزل الجبال... كنت أحب أن أومن إيمانا صادقا بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا... وأخيرا كنت أشتهى أن أعرف أن التأليف باب إلى المجد...».

ويقول فى مكان آخر:

إن مؤلف النثر الفنى خرج من حفلات التكريم بدرس بليغ هو أنفع وأجدى من الثروات الطائلات، لقد كنت يائسا كل اليأس، وكنت أخشى أن يضيع كتاب النثر الفنى، وكنت أتوهم أحيانا أنى أورطت الناشر وأبدد أمواله بلا رحمة ولا إشفاق، وكانت نيتى — إن ضاع كتابى —

أن أهجر العلم والمدنية ، وأعود كما بدأت بين الفأس والمحراث ، وفي صحبة البقرة والجمل ، وأتلهى بأنين الساقية ، وقصف الريح بين النخيل والأعناب»

لقد اعتز « زكي مبارك » بكتابه « النثر الفني » ، وكان فخورا به وتحدى به الأدباء المعاصرين ، وقال :

« إن أعظم منصب في الجامعة لايتيلني من المجد مثل ماأنالني كتاب « النثر الفني » ، وستفنى أحجار الجامعه المصرية وتبيد ذكرياتها ، ثم يبقى ذلك الكتاب على الزمان .... » .

قال هذا يوم أن أخرج من الجامعة ، كما سنقرأ في الفصل القادم .

كتاب « النثر الفني » في الواقع كتاب على ضخم ، شغل المؤلف به سبع سنوات ، وهو يقع في جزءين كبيرين ، وتبلغ صفحاته سبعمائة وخمسين صفحة من القطع الكبير . وقـد طبعته دار الكتب المصرية . والكتاب يشرح بأسهاب مذاهب النثر الفني في القرن الرابع الهجري .

وقد أثبت المؤلف أن العرب قبل الإسلام عرفوا النثر الفني ؛ بدليل أن « القرآن الكريم » — وهو غاية الغايات في البلاغة والبيان — نزل باللغة العربية ويقول الله عز وجل : « وماأرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ، ومعنى هذا أن العرب كان عندهم نثر فني ، وتقدمهم في النثر جعلهم يفهمون القرآن الذي نزل بلغتهم ، ولو كانوا غير ملمين بالنثر الفني لمافهموا القرآن بتلك السرعة وآمنوا به .

وقد هاجم المؤلف جماعة المستشرقين الذين ينكرون النثر الجاهلي ، وفند آراء المسيو « مرسيه » الذي يعتقد هذا الاعتقاد ، وهاجم آراء الدكتور « طه حسين » الذي تبنى فكرة المسيو « مرسيه » ونشرها باللغة العربية . وبذلك أثبت أن النثر الفني كان مزدهرا في بلاد العرب قبـــل الإسلام ، وليس كما يزعم المستشرقون أن العرب عرفـــوا النثر عندما اتصلوا بـ« الفرس » و « اليونان » .

ثم دافع عن الأدب الجاهلي بصورة عامة ، وبين أن هذا الأدب كان مزدهرا يتناقله السمار وعشاق الأدب ، ولكنه ضاع أكثره حتى وصل إلينا وهو لا يزيد عن كراس صغير . وبذلك أخذ ينقض دعاوى المستشرقين ومن لف لفهم .

في الجامعة والتفتيش

لم ينقطع « زكي مبارك » عن التأليف والاشتغال بالصحافة ، وقد كان لكتابه « النثر الفني » أثر كبير في الأوساط الثقافية ؛ لأنه ناقش المستشرقين في مسائل كانت مقبولة على علاتها في البيئات الأدبية .

وقد كان الباحثون العرب قبله ، يقرءون آراء المستشرقين ، فيقرونهم عليها ويتبنون أفكارهم ، وبعضهم يقف موقف الحياد ، حتى جاء « زكي مبارك » وجأر برأيه في قوة وصراحة .

والتحق مرة ثانية مدرسا بالجامعة المصرية ، وهو في الجامعة ، وصاحب الأبحاث الجامعية القيمة ، ولكن بقاءه في الجامعة لم يدم طويلا ؛ فثورته على الأوضاع ، وهجومه على الأدباء المعاصرين ، والثورة على آرائهم ، وكشفه كثيرا من أسرار المجتمع الذي يحرص الكثيرون على إخفائها ؛ — كل هذه الأشياء جعلته لا ينسجم مع المسئولين في الجامعة .

وقد كانت بينه وبين الدكتور « طه حسين » خصومة أدبية ، يرى القارئ شواهد منها في كتاب « النثر الفني » ، ولكنها ازدادت حدة عندما التحق « زكي مبارك » مدرسا في الجامعة فأخذ الدكتور « طه حسين » — وكان إذ ذاك خارج الجامعة — يشن عليه الهجوم في الصحف متعجبا من

المسئولين الذين عينوه فى هذا المنصب الجامعى ، فكتب « زكى مبارك » رداً قويا عليه ، وبالرغم من التراشق الشخصى الذى جاء فيه فهو رد قيم حوى كثيرا من الحقائق التى يجب أن يطلع عليها القارئ العربى ؛ ليعرف حقيقة « زكى مبارك » . . . الرجل الذى اتخذ الصراحة منارا ، وابتعد عن النفاق ؛ لأنه من صفات الضعفاء ، ولم يجامل صاحب الصولة والسلطان ، فحورب فى رزقه ، وكان من أمره ما كان ، وهـذا المقال مثبت فى الجزء الثانى من كتاب « البدائع » ص ١٦٩

ولما رجع الدكتور « طه حسين » إلى الجامعة عمل على فصل « زكى مبارك » وقد دافع الأستاذ « سلامة موسى » عنه ، واستنكر هذا الفصل ، ومما قاله فى ذلك الوقت :

« يجب بالحق أن نخجل من مجازاته على هذا الإحسان بمحاربته فى عيشه وعمله ، ولست أشك فى أن الجامعة المصرية تخسر بإخراجه منها أكثر مما يخسر هو ، فأن رجلا له مثل كفاءته يستطيع أن يجد العيش الرحب والفرصة المواتية لخدمة الأدب فى مدرسة فرنسية أو أمريكية بالقاهرة . ولكن هذا الإيلام للنفس يعكر صفوها ويشكك الإنسان فى القيمة التى تعود عليه من الإخلاص والجد . . . . » .

أما هو فتلقى هذا الحدث بكل شجاعة وثبات ، ومن قوله :

« أقسم ما فكرت فى المنافع المادية حين توليت التدريس بالجامعة المصرية ،

وإنما كان همى أن أغرس الشوق إلى الدرس فى نفوس تلاميذى، وقد ألقيت فى صدورهم جذوة لن تخمد، ولن ينالها سكون. ولئن قضت الأغراض بأن أبعد من الجامعة فان زملائى سيذكرون دائما أنى تركت فى أنفسهم آثارا أطيب من المسك، وقد حزنوا لفراقى حزنا أليما.

والذين يحاربوننى لم يطمعوا فى محاربتى إلا لظنهم أننى رجل أعزل، لاأنحاز إلى حزب من الأحزاب، وليس لى فى الحكومة عم أو خال ...»

خرج «زكى مبارك» من الجامعة، ولكنه لم يخرج من ميادين الأدب والصحافة، فأخذ يصل الليل بالنهار، لنيل المجد، وهل المجد إلا إتحاف الأوساط الأدبية بكل نادر وثمين من المؤلفات القيمة، وقد تنبأ له أستاذه الشيخ «مصطفى القاياتى»، عندما قال فيه يوم أن ألف أول كتاب وهو «حب ابن أبى ربيعة»:

«وجدير بمن نظر فيه — أى كتاب «حب ابن أبى ربيعة» — أن يكبر عمله، ويكبر عقله، لما عرف به الأستاذ «زكى مبارك» من سلامة الذوق وأصالة الرأى وما امتاز به من بعد النظر، ودقة الملاحظة، مع ماله من رشاقة الأسلوب، ومتانة التركيب، إلى غير ذلك من المميزات التى تجعلنا نأمل كثيرا أن يكون هذا الابن البار إماما من أئمة الأدب، وعظيما من عظماء الأمة جعله الله قدوة لشبابنا المعلمين، وأبنائنا الناهضين .....»

واصل «زكى مبارك» عمله فى ميادين الأدب والصحافة بنجاح،

فرأت الحكومة أن تستفيد منه فى مجالى التفتيش فعينته مفتشا بوزارة المعارف ، وذلك فى سنة ١٩٣٧ م ، وهل تستغنى وزارة المعارف عن الأديب العصامى الذى مشى إلى النجاح فى طريق ملؤه الشوك والعوسج ؟...

وله طرائف لطيفة فى التفتيش وقد كان فى أول أمره شديدا فى محاسبة المدرسين، دقيقا فى نقد طرائقهم .كان يأخذ كراريس التلاميذ إلى البيت فيدرس موضوعا واحدا من كل كراس مستعينا بالمراجع والقواميس، ومن المعروف أن التلاميذ فى المرحلة الثانوية لا يتقيدون دائما بقواعد اللغة ، وقد يتساهل معهم المدرسون ، فلا يصححون كل خطأ يراه فى كراريس التلاميذ ، فيهاجم مدرسيهم هجوما لم يكونوا ينتظرونه من قبل ! . . .

ومن طرائفه قوله:

« ومن عادتى أن أدعو المدرسين الذين أفتش عليهم « للتفضل » بانتظارى فى المدرسة بعد خروج التلاميذ ، وأكون تغديت ، وأخذت نصيبى من القيلولة ، ويكونون هم قد اكتفوا بما يتيسر من الشطائر الجافة ، وقضوا الوقت فى التحضير والتصحيح ، وتكون النتيجة أن أقدم عليهم بعافية ، وأن يتلقونى وقد نال منهم الإعياء . . . » .

ومن طرائفه أيضا فى التفتيش أنه ذهب لتفتيش إحدى مدارس الإسكندرية فى يوم مطير ، يحبس موظفى البنوك فى البيوت ، كما يقول هو - فوجد بعض الطلبة متخلفين عن المدرسة فكتب تقريرا إلى الوزارة ذكر

فيه أن المواظبة فى المدرسة مضطربة وأن ستة أسباع التلاميذ يتغيبون ويقول هو :

« وماكان الغائبون (ستة أسباع) ولكنى رأيتها كلمة لم يكتبها أحد من قبل ، وما فضل التجديد إن لم أبتكر بعض التعابير ؟ . . . » .

فاهتمت الوزارة بالتقرير واستجوبت ناظرها ، فقال :

« إن اليوم الذى غاب فيه التلاميذ كان يوماً عاصفاً ، وإن الزوابع هدمت بعض مبانى الشاطىء وأغرقت ثلاث سفن ، وإن حضرة المفتش يعرف ذلك ، ويذكر أنه تزحلق ثلاث مرات فى الطريق ، وإن منظره فى ذلك اليوم كان يخلق الإشفاق فى أقسى القلوب . . . » .

فدعاه وزير المعارف وعرض عليه رد المدرسة ، ولكنه أخذ يذكر الوزير بأن شوارع الإسكندرية مرصوفة ، فلا عذر هنا لك إذن ، وذكر الوزير بأيامه فى « باريس » ، وعن انتظام حضور الطلبة هناك فى الأيام المطيرة ، فاستراح الوزير لذكر أيام الشباب وقال له : أحسنت ! . . . أحسنت ! . . .

إلا أن « زكى مبارك » يعقب قائلا : « ويشهد الله أنى لم أكن يومئذ من المحسنين » .

وفى هذه الحادثة إضافات طريفة من ابتكاره ، لا تخفى على القارئ الكريم .

كتاب التصوف الإسلامي

هذا كتاب نال به « زكي مبارك » الدكتوراه الثالثة من الجامعة المصرية ، وقد رأيناه لا يكتفي بما لديه من إجازات علمية وإنما يحصل بين كل فترة وأخرى على دكتوراه جديدة ، وقد سئل عند ما كان في « بغداد » عما إذا كان ينوي التقدم لامتحان الدكتوراه الرابعة فأجاب بقوله :

« جواب هذا السؤال عند ابني العزيز « سليمان مبارك » ، فإن شاء له أدبه وعقله أن يحمل عني هموم الأهل ، فإني سأهاجر في سبيل العلم إلى ألمانيا أو إنجلترا » .

اندفع « زكي مبارك » لنيل الإجازات العلمية اندفاعا عظيما ، وكلما تقدم للامتحان كانت نتيجته رائعة تلفت النظر ، وتدهش الجمهور .

قدم كتابه التصوف الإسلامي في سنـــة ١٩٣٧ ونال به إجازة الدكتوراه برتبة الشرف ، وكان من أعضاء اللجنة الدكتور « منصور فهمي » والأستاذ « مصطفى عبد الرازق » والدكتور « عبد الوهاب عزام » . وقد كان رئيس اللجنة هو الدكتور « طه حسين » ، ولكنه اعتذر عن الحضور ، وأناب عنه الأستاذ « شفيق غربال » .

وانتدع الأستاذ « محمد جاد المولى » يصف « زكي مبارك » في هذا الامتحان - فهو الذي كتب مقدمة هذا الكتاب ، وقد كان أحد أعضاء

اللجنة التي امتحنت المؤلف في كتابه «الأخلاق عند الغزالي» لنيل الدكتوراه، وقد رأيناه كيف أثار تلك الضجة، وهاجمه أعنف الهجوم في لجنة الامتحان.

يقول الأستاذ جاد المولى :

« ما وقع بصري على الأستاذ الدكتور « زكي مبارك » ، إلا تذكرت هجومي عليه في سنة ١٩٢٤ إذ انتدبتني وزارة المعارف عضواً باللجنة التي أدى أمامها امتحان الدكتوراه بالجامعة المصرية أول مرة » .

ثم أخذ يصف الأحداث التي لازمت ذلك الامتحان ، ثم يعرج على الدكتوراه الثالثة فيقول :

« وكذلك حضرت مع النظارة لأرى هذا التلميذ الذي اشتركت في امتحانه منذ ثلاثة عشر عاماً ، وكونت فيه رأياً قد لا يرضيه ، لو اطلع عليه ، فماذا رأيت ؟ . . . وماذا لاحظت ؟ . . .

رأيت طالب الدكتوراه في سنة ١٩٢٤ غير طالب الدكتوراه في سنة ١٩٣٧ كان الطالب الأول يجادل لجنة الامتحان ، بلا تهيب ولا تلطف ولا أقول بلا تأدب . أما الطالب الجديد ، فكان آية من آيات الأدب والذوق ، وكان مثالاً من أمثلة التواضع والاستحياء ، يستمع السؤال بهدوء ، ويجيب عليه بذكاء ، مقرون بالتحفظ والاحتراس . لقد تغير تغيراً تاماً ، وانقطعت الصلة بين حاضره وماضيه أشد انقطاع . وكذلك يصنع العلم بأبنائه الأوفياء ، فهو يجعلهم متواضعين مهذبين ، لا يعرفون العنف ولا

الغطرسة ولا الكبرياء . . . » .

وما دمنا قد استشهدنا بكلام الأستاذ « جاد المولى » نرى من الأفضل إيراد رأيه فى هذا الكتاب ، إتماما للفائدة ، فقال :

« ومن واجبى أن أحترس فى الثناء ، فأصرح بأنى لا أتفق والدكتور « زكى مبارك » فى كل ما عرضه من الآراء فى كتاب « التصوف الإسلامى » ، ولا غرو فى ذلك ، فالباحثون قلما اتفقوا على رأى واحد ، إن المهم عندى ، وعند جميع المنصفين أن يكون الباحث حسن النية ، مستقلا فى آرائه الفلسفية ، والدكتور « زكى مبارك » من هذه الناحية ، متفوق كل التفوق ، فهو فى كتابه هذا يدرس التصوف دراسة من يفهم أسرار التصوف .

والعقل الفلسفى ظاهر كل الظهور فى هذا الكتاب ، فالمؤلف — أثابه الله — يدرس الوجوه المختلفة للرأى الواحد ، وقد يصل حاله إلى الغرابة فى بعض الأحايين ، حين يعرض عليك عدة صور لرأى من الآراء ثم تراه متشيعا لكل صورة كأنها رأيه الوحيد ، وكأنه أشخاص يتحاورون ، لا شخص واحد .

وذلك هو العقل الفلسفى فيما أعرف ، وهو لا يتوفر للباحث إلا حين تنضج مواهبه ، ويكبر عن التعصب لرأى من الآراء .

وقد ألف المسلمون مئات أو ألوفا من المصنفات فى التصوف ، وما كنا فى حاجة إلى كتاب جديد . فالمزية الصحيحة للدكتور « زكى مبارك »

هى أنه لم يؤلف كتابه فى الدعوة إلى التصوف أو الهجوم على التصوف، وإنما ألف كتابه فى نقد التصوف، فبين ما فيه من محاسن وعيوب، وكشف عما فيه من ضعف وقوة، بصراحة فائقة، وبممارسة رائعة، وأسلوب متين .

وأنا بعد هذا التحفظ ، أشهد أن هذا الكتاب يفيض بقوة الروح، وأعتقد أنه يغرس الشعور بالتبعة الخلقية ويوجه القارىء إلى فهم أسرار المعانى . وتسجيل هذا الرأى يريحنى من الإحساس الذى أرقنى منذ سنة ١٩٢٤م، حين حرضت الجمهور علناً على الشك فى آراء الدكتور «زكى مبارك» الرجل الفاضل المخلص الذى أنفق شبابه فى الدراسات الأدبية والفلسفية » .

وكتاب التصوف الإسلامى كتاب ضخم يقع فى ثمانمائة صفحة من القطع الكبير، وقد صدرت الطبعة الثانية منذ سنتين تقريباً . بعد أن نفدت الطبعة الأولى منذ أمد بعيد .

وكان فى هذا الكتاب بحث مسهب عن (المدائح النبوية فى الأدب العربى) ولكن اللجنة المشرفة على الكتاب ، رأت أن يظهر هذا البحث مستقلا عن الكتاب . وقد وافق المؤلف على رأيهم وأصدر هذا البحث فى كتاب مستقل يقع فى مائتى صفحة من القطع الكبير . وفى هـــذا الكتاب فيض من القصائد القيمة فى مدح النبى وآل بيته . لنخبة من الشعراء الأعلام كـ « الأعشى » و « كعب » و « حسان » و « الكميت ابن زيد » و « الفرزدق » و « دعبل الخزاعى » و « الشريف الرضى » و « مهيار » و « البوصيرى » و « ابن نباته المصرى » .

الى بغـــداد

سيسأل قوم من زكى «مبارك» وجسمى مدفون بصحراء صماء
فإن سألوا عنى ففى مصر مرقدى وفوق ثرى «بغداد» تمرح أهوائى

— ١ —

كان «زكى مبارك» ينوى السفر إلى باريس لمشاهدة «المعرض الدولى» وقد كان فى ذلك الوقت حديث عهد بالتفتيش أى فى صيف سنة ١٩٣٧ ولكنه قبل أن يسافر استدعى إلى مكتب تفتيش اللغة العربية، وأخبره الأستاذ محمد فهيم أن «حكومة العراق» قد طلبته للتدريس فى «دار المعلمين العالية» ببغداد. وقد كان مترددا فى أول الأمر حريصاً على البقاء إلى جانب أولاده الذين يسرهم أن يغترب راعيهم؛ ليواجهوا الحياة بشىء من الحرية والاستقلال»؛ كما يقول هو ...

ولكنه تلقى خطابا من «المفوضية العراقية» بالقاهرة بتوقيع نائب القنصل العام يقول فيه:

«حضرة الأستاذ الدكتور زكى مبارك المحترم

تحية واحتراما،

يسرنى جدا لو تفضلتم بزيارة المفوضية بأقرب فرصة لديكم؛ للبحث

فى مسألة انتدابكم للتدريس فى « العراق » بناء على شدة رغبة وزارة المعارف العراقية فى ذلك ، وتفضلوا بقبول فائق تحياتى واحترامى »

تقبل « زكى مبارك » هذه الدعوة الكريمة ، بكل ارتياح ، وكيف لا وهو ذاهب إلى « العراق » بلاد العلم والحضارة ، بلاد « الكوفيين » و « البصريين » بلاد العلماء الأعلام الذين نشروا الثقافة الراقية فى جميع أنحاء العالم ، « العراق » الذى شهد أروع المعارك الحربية التى غيرت وجه التاريخ . . . وأروع المعارك الأدبية التى سمت بالأدب العربى إلى ذروة النجاح .

تقبل الدعوة ؛ لأنه واثق بأنه لن يحس بأية غربة ، وكأنه غير بعيد عن مصر .

وهذه أمنية كانت تطوف بخياله منذ أمد بعيد ، فهو بعد أن غرّب ونقل مذاهبه الأدبية من « القاهرة » إلى « باريس » ، واستطاع أن يترك أثرا حسنا فى البيئات الأدبية هناك ؛ — أدرك أن واجبه الأدبى يدعوه ليشرق قليلا ، وينقل مذاهبه ومعاركه الأدبية إلى « بغداد » . . . وطن أساتذته القدماء الأجلاء فى الأدب والفلسفة .

تقبل الدعوة وتوكل على الله ، ولكن أستاذه الدكتور « طه حسين » أوصاه قبل سفره قائلا : « ستقدم « بغداد » وأنت كاتب معروف ، فيقبل عليك الصحفيون فيسألونك كيف رأيت « بغداد » ؟ فإن فعلوا فاحذر يا دكتور زكى ، أن تصرح بشىء ؛ لأنك موظف فى حكومتين ، ومركزك دقيق » .

وفى هذه الوصية معنى لايخفى على القارىء الكريم وهو أن الدكتور « طه حسين » يعرف « زكى مبارك » الأديب الثائر كل المعرفة ، وخشى أن ينقل معاركه وخصوماته الأدبية إلى ميادين « بغداد » فيناله هناك لوم وتثريب ، فأوصاه بتلك الوصية ، لكى يخفف من هجماته الأدبية ، وصراحته الواضحة .

سافر عن طريق البر إلى « فلسطين » ومنها إلى لبنان فالشام ، وقطع الصحراء بين « دمشق » و « بغداد » فى إحدى السيارات الكبيرة التى تقطع المسافة فى خمس وعشرين ساعة ، وفى الصحراء حدثت له نوادر لطيفة عن الصحراء ، ويقول :

« وبعد ساعات من عبور الصحراء نظرت فرأيتنا مقبلين على مدينة فيحاء ، مدينة تقع على نهر واسع تجرى فيه سفائن بخارية وشراعيـــة ، فانشرح صدرى ، وقلت سنستريح لحظات ثم عجبت من جهلى بالجانب الجغرافى من ذلك الطريق فما كنت أعرف أن هناك مدينة تقع على نهر عجاج ، وترحمت على أستاذى « إسماعيل رأفت » الذى أسقطنى فى امتحانات الجامعة المصرية مرتين ، لعلة ما كنت أعرف من دقائق « علم الجغرافيا » وعلم وصف الشعوب » ولكن لم تمض غير دقائق حتى اختفت تلك المدينة مرة واحدة فعرفت أنها كانت أضلولة من أضاليل السراب » .

وعند ما وصل « بغداد » واتصل بوزير المعارف آنذاك وهو الأستاذ « محمد رضا الشبيبى » ، وأخبره عن متاعبه فى الصحراء وطول الطريق »

فقال له « اشكر ربك ؛ فقد قطعتها قبلك فى مدة دامت خمسة وعشرين يوما قبل أن تعرفها السيارات » .

لقد قطع « الشبيبى » المسافة فى خمسة وعشرين يوما وقطعها «زكى مبارك» فى خمس وعشرين ساعة . ويقطعها الناس فى أيامنا هذه بساعتين اثنتين فقط ! ... فما أعجب مايصنع الزمن ! ... وما يتكره عقل الإنسان

وما كاد يصل إلى « بغداد » حتى استبشرت الأوساط الأدبية والعلمية بقدومه ، واستقبله المثقفون استقبالا يليق بمكانته الأدبية . وأخذ يملأ أنهار الصحف بكل طريف ومفيد من الأفكار ، ويوالى إذاعة أحاديثه من محطة الإذاعة ، ويراسل صحف مصر بأخباره الأدبية إلى جانب دروسه فى «دار المعلمين العالية » ومحاضراته عن «الشريف الرضى» فى كلية الحقوق» .

إن المدة التى قضاها فى « العراق » — بالرغم من قصرها — كانت من أخصب أيامه الأدبية ، وقد استطاع أن يكتب آلاف الصفحات فى شتى نواحى الأدب ، واستطاع أن يتحف القراء بكتبه « ليلى المريضه فى العراق » و « وحى بغداد » ، « وملامح المجتمع العراقى » ، «وعبقرية الشريف الرضى»

والذى جعله ينجح كل هذا النجاح فى « بغداد » هو إخلاصه الذى كان مضرب الأمثال ، وروحه المرحة التى حببت إليه الجمهور المثقف ، وقد كان يسود مجلسه جو من المرح والانشراح ، وسبب آخر وهو تعمقه فى مادته واطلاعه الواسع فى الآداب العربية والأوروبية ، وقد كان فى

هذا الميدان الفارس الذى لا يجارى . إلى جانب شجاعته الأدبية وقوة شخصيته ...

— ٢ —

وأول شىء عمله عند وصوله إلى « بغداد » ، هو نشر رسائل « ليلى المريضة فى العراق » فى « مجلة الرسالة » ، وكانت « مجلة الرسالة » ناجحة مقروءة فى جميع البلاد العربية ، وهذه السلسلة الأدبية كانت ذات طابع مرح ، وهذه الرسائل جمعها فى كتاب يقع فى أكثر من ألف صفحة ، وهو فى الواقع كتاب طريف يوهم فيـــه مؤلفه القارىء الذى لا يعرفه أنه دكتور فى الطب ، وقد جاء لمداواة « ليلى » فى « العراق » ، فمن ذلك ما يرويه عن مرض « ليلى » :

« لقد كنت الطبيب الوحيد الذى استكشف هـذا المرض الخبيث وألقيت عنه محاضرات فى « باريس » ، بعد أن أديت الامتحانات النهائية فى الطب ، ثم نشرت خلاصة بحثى فى المجلة الطبية المصرية ، ولم أظفر — وا أسفاه — بغير السخرية يواجهنى بها زملائى فى مصر ، ويراسلنى بهـا أساتذتى فى « باريس » .

إذا قرأ هـذا الكلام قارىء اليوم فى كتاب « ليلى المريضة » ، ولم يعرف عن « زكى مبارك » شيئا ، إلا أيقن أن هـذا الكلام صحيح لا غبار عليه .

وقد حدث مرة أن جاءنى صديق وقال لى : ما بالك تذكر فى كتاباتك

أن « زكي مبارك » دكتور فى الآداب فقط بينما هو دكتور فى الآداب والقانون والطب. كما قرأت ذلك فى الجزء الأول من كتاب « ليلى المريضة فى العراق » ؟ ! . . . فأجبته : إن ما قرأه ما هو إلا من لطائف « زكي مبارك » وما يراه فى كتاب « ليلى المريضة » عن أخبار الطب والأطباء ، ومعالجة « ليلى » و « ظمياء » ما هو إلا نكتة من نكاته الطريفة التى بثها فى كتابه هذا ، وأخبرته أن « ليلى » ليست شخصية صحيحة ، وإنما هى شخصية مستعارة ، ابتكرها المؤلف لمعالجة البحث الذى بين يديه ، وقلت له إن « ليلى » — حسب ظنى — هى اللغة العربية التى هام بها « زكي مبارك » ، وأصبح مدلها بحبها . فلم يقتنع صديقى إلا بعد أخذ ورد .

وقد سئل « زكي مبارك » عن « ليلاه المريضة » ، فقال « إن » « ليلى الزهاوى » هى « العراق » ، وأنا أصرح بأن « ليلاه » فى « بغداد » هى « ليلى المريضة فى العراق » ، وهى معروفة لجميع الناطقين بالضاد : فمن هى ليلى هذه التى يعرفها جميع الناطقين بالضاد ، إن لم تكن اللغة العربية . وسبب كتابة هذا الكتاب هو ما قاله بنفسه :

« . . . وساءنى أن يقال إن « راسين » هو أعظم من شرح عاطفة الحب ، فألفت كتاب « ليلى المريضة فى العراق » ؛ لأقيم الدليل على أن فى كتاب اللغة العربية من يتفوق أظهر التفوق على « راسين » » .

وهو كتاب تحررت فيه من جميع القيود والأغلال ، وأردت أن

يكون أصدق تعبير عن العبقرية العربية فى هذا الجيل » .

ومن طرائفه عن الطب قوله :

« ... ولولا جناية الأدب لكنت اليوم عميد كلية الطب بالجامعة المصرية .. » فهل يلام بعض القراء إن ظنوه طبيبا من كبار رجال الطب فى هذا العصر ، بعد أن يقرءوا هذا الكلام وأمثاله ، خاصة إذا رأوا الصورة المنشورة فى كتاب « ليلى المريضة » ، وهى تمثـــله بصفة طبيب يعالج ليلى ، وهى طريحة الفراش وبجانبها زجاجات الدواء ، وقد كتب تحتها « الدكتور على فراش ليلى المريضة فى العراق » ، وقد نشرت هذه الصورة جريدة « جبزبوز » العراقية ونقلها « زكى مبارك » فى كتابه .

وهل يشك القارىء لحظة فى أنه طبيب إذا قرأ هذه الجملة بقلمه :

« ... ألا فليعلم الجمهور الذى يخلفنا بعد مئات السنين ، أن الأدب أضاع ثلاثة من الأطباء ، كانوا يعيشون فى مصر ، وهم « محجوب ثابت » و « أحمد زكى أبو شادى » ، و « زكى مبارك » » .

أما أن الأول والثانى ، طبيبان فهذا صحيح ، وأما أن « زكى مبارك » طبيب ثالث أضاعه الأدب فهو غير صحيح ، ولكنه كلام لطيف ترتاح منه النفس ولو قال به غير « زكى مبارك » لكان كلاما يدعو إلى السخرية والاستهزاء ، ولكنه نال الاستحسان ؛ لأنه صـــدر من أديب مرح ، صاحب طريقة فريدة فى الأدب العربى الحديث .

ويستمر « زكي مبارك » فى ابتكار طرائفه عن « ليلى » والطب ، وينشر خطابا فيه تهديد له على تعرضه بليلى فى المجلات ... والخطاب من أحد أقارب « ليلى » ، يقول فيه :

« ... وهكذا فكرت فى مبارزتك واختطاف روحك ، ولكنى تحولت عن هـذا الخاطر ، وقلت إنى إذا قتلته أ كون قد قتلت معه علما وفيرا فى الطب ، وأدبا غزيرا فى عالم الأدب ، وعلى هذا تركتك للرب ، يقتص منك ؛ لما فعلته ضدى مع قريبتى « ليلى » ... » .

وصار موضوع « ليلى المريضة » شغل القراء الشاغل، وكان يتسلم المؤلف بين الفينة والأخرى رسائل تشجيع ورسائل نقد. فن رسائل التشجيع: أن قراء «فلسطين» كانوا يدعونه إلى بلادهم ليداوى «ليلى المريضة فى فلسطين» ويأتيه خطاب آخر يدعوه لمداواة «ليلى المريضة فى السودان» ... ويتسلم خطابات أخرى من « ليلى المريضة فى الزمالك » أو « مصر الجديدة » أو « حلوان » ، وكلهن ثائرات على المؤلف ، لإيثاره الكتابة عن « ليلى المريضة فى العراق » .

وقد تلقى المؤلف خطابا يقول فيه صاحبه :

« إن أخبار كلفك بليلى — أعزها الله — كادت تذيب صخور المقطم ، وتنطق أسماك «النيل» ، إشفاقا عليك ، فأرجو أن تطلع صاحبة وحيك على هذه الأبيات ، عساها تعرف أن قومك يسرهم أن يسمعوا برضاها عنك ، وعطفها عليك »

وهذه هي الأبيات :

يا صاحب الاسم الزكي	وصاحب اللقب المبارك
يهنيـــك أنك لست في	تمريض ليــــلى بالمشارك
من لو رأتها في الضحى	شمس الضحى قالت تبارك
لا كدرت بالغـدر ليلك	يا وفى ولا نهـــارك

وكانت القصائد تنهال على «طبيب ليلى» في الصحف وفي المجلات الأدبية ، وقد أخذ أدباء العراق — كتابا وشعراء — يداعبون طبيب ليلى ويهدونه قلائد الأفكار ، يجدها القارئ منبثة في كتاب ليلى المريضة ، وهي كثيرة .

وكما كان المؤلف يتلقى كلمات وقصائد التشجيع كان يتلقى أيضا كلمات النقد القارص ، فمن ذلك هذه الكلمات المنشورة في إحدى صحف «لبنان» :

«ويلذ لي ، وقد قرأت ، في مجلة الرسالة ، مقال الدكتور عن سفرته إلى العراق ، أن أستطرد فأسأله : ما هذا الهراء الذى سود به صفحتين من المجلة ووعد بـ «البقية تأتي» ؛ ليقول إن «ليلى في العراق مريضة» ، ومرضها لا يشفيها منه إلا دكتور مثله؟ أنكون عاصمة الرشيد على فراش الاحتضار وليس من يجهل في «لبنان» ، أن بين أبنائها النطاسي البارع والجراح الماهر ، والصيدلي الممتاز . فهي إذن ليست بحاجة إلى دكتور يأتيها من بعيد ليداويها ... »

ومهما يكن من الأمر فأن هذه الرسائل فتح باهر في الأدب الحديث .

وقد كتبت إحدى الصحف ما يلي :

« لقد أخذت رسائل الدكتور « زكى مبارك » التى تنشرها مجلة الرسالة الغراء بمصر ، تحت عنوان « ليلى المريضة فى العراق » دورا هاما ومكانا طيبا فى نفوس أدباء البلاد العربية طرا ، فقد تفنن الأستاذ مبارك فى رسائله هذه فأحدثت فتحا فى عالم الأدب » .

إلى جانب هذه الرسائل كان يحاضر فى كلية الحقوق عن « الشريف الرضى » ، ويوالى الصحف بكتاباته القيمة ، ويذيع أحاديثه من محطة الإذاعة — كما قلنا سابقا — وقد كان يرد على منتقديه فى صحف « مصر » و « لبنان » و « العراق » .

— ٣ —

وجد « زكى مبارك » نفسه فجأة بين ربوع دجلة والفرات ، فهل يترك الفرصة تفوته ، دون أن يزور الحواضر العراقية ، ويحيى الذكريات الحبيبة التى قرأ عنها كثيرا فى كتب الأدب والتاريخ والفلسفة .

وأخذ يعد العدة لزيارة البصرة . . وطن « الجاحظ » ، و « المبرد » و « الحسن البصرى » و « إخوان الصفا » ، ووطن الحسن والنخيل والأعناب ، استقل القطار إلى البصرة ، وفى القطار حدثت له هذه الحادثة كما رواها :

« وفى المحطة تقدمت فلاحة فى خمار أسود ، ومعها ماعون هائل فيه اللبن الرائب ، فاشتريناه بعشرة فلوس ، وتقدم طفل وفى يده رغيفان فساومناه ، فاشتط فى الثمن فقاومناه ، فقبض على الرغيفين بأسنانه والقطار

يمشى، فرميناه بعشرة فلوس. ونزعنا من أسنانه الرغيفين !... ما أظرف العبث فى قطار البصرة وما أحلاه !...

وما كاد الطعام يستقر فى جوفى حتى هجم النــوم هجوما لم أشهد مثله منذ أعوام ، فعرفت أن ذلك اللبن الرائب أراح أعصابى ، وهى أعصاب أرهقها النضال وسهر الليالى ...».

وما كاد المجتمع البصرى المثقف يعلم بقدوم الأديب الكبير حتى هب لاستقباله ودعى لإلقاء محاضرة يتحف فيها الجمهور المثقف وقد طلعت الصحف البصرية تحمل هذا العنوان «الدكتور زكى مبارك يحاضر أبناء الفيحاء عن غابر مجد البصرة العلمى والأدبى والفلسفى » وقالت إحدى الصحف :

« ابتهجت الطبقات المفكرة فى الفيحاء بزيارة الدكتور « زكى مبارك » أستاذ الأدب العربى فى دار المعلمين العالية ببغداد ، وكان بودهم أن تتاح لهم فرصة الاجتماع بالقادم الكريم ، ومن حسن الحظ أن هيئة نادى البصرة شعرت بهذه العاطفة فأتاحت للشعب البصرى أن يستمع إلى محاضرة الدكتور ، فكانت فرصة سعيدة تلقاها البصريون » .

وقد كان يود أن يبقى طويلا فى البصرة بلاد أساتذته الأجلاء فى الأدب والفلسفة ، ولكن واجباته الكثيرة التى تنتظره فى « بغداد » جعلته يعجل بالعودة بعد أن خلف فى البصرة ذكريات جميلة كان يشدو بها ويحن إليها كثيرا .

— ٤ —

وكانت جولته الثانية إلى « النجف » شبيهة « الأزهر » فى علوم اللغة والفقه ، وفى « النجف » بحث « زكى مبارك » عن فندق للسكن فأعياه البحث وكلما وقع على فندق وجده أحقر من سابقه ، وكان يأمل أن يجد فنادق نظيفة ، لعلمه أن النجف يؤمها سنويا آلاف من الوافدين لزيارة الإمام « على بن أبى طالب » . ولما يئس من الاهتداء إلى فندق نظيف سكن فى غرفة حقيرة فى فندق حقير كما يقول، وقد كان متضايقا غير مرتاح ، فقال :

« وأصرخ فى وجه النجفيين قائلا : إن المدينة التى تخلو من فندق نظيف لا تسمى مدينة ، والذين عاشوا فى أوربا كما عشت لا يستطيعون النزول فى منازل الأصدقاء ، والفندق النظيف هو المأوى الطيب للضيف فيا أهل « النجف » ، تذكروا أن مدينتكم فى حاجة إلى فندق نظيف وتذكروا أن مثل ذلك الفندق ينقل مدينتكم من حال إلى حال » .

« والنجف » مازال حتى يومنا هذا خالية من الفنادق النظيفة التى يرتاح فيها النازل ويشعر بالطمأنينة والهدوء ؛ وذلك لأن أكثر الوافدين إلى « النجف » هم من زوار « الإمام » وهؤلاء ينزلون فى خانات معدة لهم ، ولكل قوم جماعة من المزورين يستقبلونهم ، وينزلونهم فى تلك الخانات . ووجهاء القوم ينزلون فى منازل المزورين . ولكن هناك بعض الناس لا يرتاحون من السكن لا فى الخانات ولا فى منازل المزورين

فيغادرون « النجف » بعد فترة قصيرة . إذن فدعوة « زكى مبارك » لإنشاء فنادق عصرية مازالت تنتظر من النجفيين التلبية . لا سيما وأن منزلة « النجف » العلمية ، ووجود ضريح « الإمام » فيها ، وقربها من « الكوفة » التاريخية ، كل هـــذه تغرى السياح على اختلاف أنواعهم بزيارتها ، فأين يسكن هؤلاء ؟ ... وألا تكون تلك الفنادق البسيطة والخانات الحقيرة سببا لنفورهم ومغادرتهم البلاد ؛ ليرضوا من الغنيمة بالإياب ! ...

وعندما علم النجفيون بوجود « زكى مبارك » بين ظهرانيهم خفوا لاستقباله ، والقيام بواجبات الضيافة . والتفوا حوله فرحين بلقـائه ، وكيف لا وأنباؤه المعطرة تسير فى شرق البلاد وغربها ، وقد كان النجفيون يتطلعون إلى هذه الزيارة منذ وطئت قدماه أرض العراق .

وأخذ ينتقد الرأى القائل بتعديل البرامج النجفية ، بعد أن رأى النجفيين ثائرين على أوضاعهم القديمة ، ومن أقواله لهم :

« فقد صح عندى أن الأساليب الأزهرية والنجفية ، أساليب تنفع أجزل النفع فى رياضة العقل ، يضاف إلى ذلك أن « الأزهر » هو الذى حفظ اللغة العربية فى عهد المماليك ، وأن « النجف » هو الذى حفظ اللغة العربية فى عهـــد الأتراك ، ورعاية العهد توجب الإبقاء على تلك الأساليب التى استطاعت أن ترسل النور الوهاج فى دياجير الظلمات » .

وقد عقبنا على هذا الكلام فى الفصل الذى تكلمنا فيه عن «الأزهر» ولا حاجة لإعادة ماقلناه هناك. وزار «الكوفة» عاصمة الإسلام فى أيام «الإمام على» والمدينة التاريخيـــة التى كان لها شأن عظيم فى الدين والعلم والسياسة، و«الكوفة» التى شهدت صراع الأبطال، وارتوى ثراها بالدم القانى، وجرت فيها الانقلابات التاريخية المشهورة!...

و«زكى مبارك» من الأدباء الذين تستهويهم الآثار، ويجدون فيها صورا نابضة متحركة كأنها صور حقيقية لم يمسها البلى، ولم تعبث فيها أيدى الحدثان، ويقول هو:

«لقد شهدت بعينى كيف طعن «على بن أبى طالب» ورأيت دمه رأى العيان، ورأيت المكان الذى خطب فيـه «الحجاج» خطبته المشهورة، «الحجاج» الهائل الذى أصلح «العراق». وأفسد «العراق»، ورأيت قبر «مسلم بن عقيل» رسول «الحسين»

ومن «الكوفة» مضى لزيارة «الحيرة» — «الحيرة» التى محاها الزمن من الوجود. وأحالها إلى أرض جرداء ليس فيها إلا أحجار متناثرة لاتدل على أطلال ولا آثار. ماذا صنعت الأيام بـ «الخورنق» ذلك القصر المشهور الذى يذكره التاريخ بالعز والفخار؟...

وماذا فعل الدهر «بالسدير» صنو «الخورنق» فى الأبهة والعظمة، وأين المدينة نفسها التى كانت عاصمة «العرب المناذرة» أيام عزهم وصولتهم

ولندع «زكى مبارك» نفسه يصف لنا بشعره المنثور ماعصف فى نفسه من الذكريات الحرار .

«ما أشقاك فى دنياك وأخراك أيها النعمان»! ... أنت قتلت «سنمار» ليبقى سر «الخورنق»، فهل بقى «الخورنق»؟ ... ليتك استعنت بالجندى المجهول فى وادى النيل! . ليتك بنيت هرماً يعجز اللئام عن نقل أحجاره ليبنوا بيوتهم الخاوية! ..

أيها «النعمان»، أيها الملك العربى العظيم، أين «الخورنق»، وأين «السدير»؟ ... اعترف أيها الملك بعظمة الشعر والشعراء، فنحن الذين حفظنا مكانك فى التاريخ، ولولا الشعراء لطمس الزمن مكانك فى التاريخ ....

وأقيمت «لزكى مبارك» حفلة تكريمية كبرى فى مقر «جمعية الرابطة العلمية الأدبية» تكلم فيها كثير من أدباء «النجف» وشعرائها وهم السادة: الشيخ «محمد على اليعقوبى» و «صالح الجعفرى» و «محمود الحبوبى» و «محمد جمال الهاشمى» و «عبد المنعم الفرطوسى» و «كاظم محسن الخلف» ثم تكلم المحتفى به شاكراً للنجفيين تقديرهم للعلم والعلماء، وتكلم عن الحياة الأدبية بصورة عامة، وتطرق «للشريف الرضى» و «نهج البلاغة»، ولم ينس الكلام عن العيون السود وتخلل خطابه المرتجل بعض الفكاهات واللطائف والنوادر التى يجيد إلقاءها كل إجادة فتؤثر فى السامعين وتطربهم وهذه الكلمات والقصائد مسجلة فى آخر الجزء الثالث من كتاب «ليلى المريضة

فى العراق ، أما كلمة المحتفى به فهى مثبتة فى كتاب «وحى بغداد» .

وقد ودع بمثل ما استقبل به ، بعد أن ترك أطيب الأثر فى نفوس النجفيين ، وذكراه ماتزال معطرة أندية «النجف» ومجالسها الأدبية ، ويذكره النجفيون حتى يومنا هذا بكل تقدير وإعجاب .

— ٥ —

«والموصل» : هل ينساها «زكى مبارك» ؟ ... بلد الحائم الموصلية ذات الهديل الفاتن ، الحائم التى خلدها الشعراء فى أشعارهم . استقل القطار وحدثت له حكاية لطيفة كالتى حدثت له فى قطار البصرة :

لقد كان جاره يقرأ صحيفة اسمها «الأندلس الجديدة» وكان فيها مقال فى تجريح «زكى مبارك» ، فابتسم وقال فى نفسه : «جرحوه كيف شئتم ، فستطيب الدنيا يوم يصل إلى فؤاد ليلاه ! ...»

وفى هذه المرة غلبه النعاس أيضا كما غلبه فى قطار «البصرة» ، فنام ولم يعرف معالم الطريق كما يقول . ولست أدرى كيف يستطيع النوم فى القطار وهو الأديب المرهف الإحساس الذى توقظه الهمسة الخفيفة ؛ والنسمة العابرة وهو الذى يأنس بوحشة الليل ، فى ظل القلم والورق ... ولهذه الظاهرة تعليل واضح «وهو أنه لم يجد وقتا يرتاح فيه من صرير القلم وخشخشة الورق وأضواء المصابيح ، إلا فى ليالى السفر ، حيث تتعـــذر الكتابة ، فيغتنم الفرصة لتعويض مافاته من لذيذ الرقاد فى الليالى السالفات .

تلك الليالى التى جعلت أعصابه منهوكة متعبة . إذن فليس عجيبا أن نجده يستسلم لنوم عميق بينما عجلات القاطرة تصم الآذان .

وفى «الموصل» تلقاه الموصليون بما هو أهل له ورحبوا به أجمل ترحيب . وهو كعادته دائما أينما يذهب فأخبار ليلاه تعطر الأرجاء ، وتكون تلك الأخبار على كل لسان ، وقد ظن الناس أنه ترك الكلام عن «ليلى» حتى يعود إلى «بغـــداد» ، ولكن خاب ظنهم ، ففى «البصرة» «والنجف» «والكوفة» «والموصل» ، حلت أنباء «ليلى» فى الصدارة وكلما رأى طيفا ظنه طيف «ليلى» .

وهو أينما يذهب فأخبار الملاح عنده هى الأثيرة على كل أخبار ، وفى الصفحات المائة التى تكلم فيها عن رحلته إلى «الموصل» ، حوت كل طريف وبهيج عن «ليلى» وأخواتها من الملاح .

زار مدارس «الموصل» ومساجدها ومعالمها ومكتبتها ، ومن طرائف مايرويه فى رحلته هذه أنه سمع أن الدكتور «عبد الوهاب عزام» عندما مر بالموصل حاول صعود المنارة الحدباء فلم يستطع ، بسبب ما أصابه من الدوار ونزل بعد أن صعد خمسين درجة . وسمع الخبر فى عدة أماكن ، فقال «يافضيحة الجامعة المصرية» ! . . .

وذهب ليصعد المنارة فرآها منارة يعجز عن صعودها أقوى الرجال ، وعندما علم أنه كان غالطا عندما لام الدكتور «عزام» على عدم استطاعته

صعود تلك المنارة ، وأراد النزول ولكنه تذكر شيئاً هاما وهو أن «ليلى» ستعلم بالخبر . ففهم أن طيبها أصبح من الأشباح ولذلك صعد المنارة بعزائم الشياطين كما يقول .

وفى «الموصل» زار الأديرة التى كان لها فى شعر الشعراء أوفى نصيب وقد اتصل بالرهبان وكان له معهم أحاديث طويلة ، يجدها القارىء فى كلامه عن رحلته إلى «الموصل» .

— ٦ —

ولنعد الآن إلى «زكى مبارك» فى واجباته ودراساته الأدبية ومعيشته فى «بغداد» . لقد أحب «العراق» حباً جماً وكلما كتب مقالاً أو بحثاً أشار إلى حبه الخالص إلى العراق والعراقيين ، فبادله العراق والعراقيون حبـا بحب وإخلاصا بإخلاص وقد «خفق قلبه حتى كاد يطفر لها الدمع ، حين وقع بصره على دجلة أول مرة وشرب ماء الفرات صرفا ، فبدا له أشهى وأعذب من الرضاب المعسول» .

وليل «بغداد» ... لقد كان يثنى على ليل «بغداد» ويفضله على ليل «القاهرة» و «باريس» ؛ لأنه مكنه فى شهور قليلة من إنشاء آلاف الصفحات فى الأدب والفلسفة والاجتماع والسياسة . وقد صارح العراقيين بأنه سينهب ليل «بغداد» ويضعه فى جيبه وينقله إلى «مصر» ويقول :

« ليل بغداد هو الذى سيخلق «زكى مبارك» من جديد . ليل «بغداد»

الطويل الذى يصل فى بعض الأحايين إلى سبع وسبعين ساعة وسبع دقائق. ليل بغداد الذى حمل المكتبة العامة على رفع شكواها إلى «وزارة المعارف» لتتقذها من «الجاحظ الجديد، الذى اسمه «زكى مبارك».

أحب «زكى مبارك» «العراق» حباً عظيماً، حتى أنه حزن عندما دنت ساعة الفراق، ومايذكر أنه شعر بهذه الظاهرة عندما كان فى «باريس» ينتظر رجوعه إلى مصر بفارغ الصبر.

لقد التف العراقيون حوله التفافا عظيما، وأخذت الصحافة العراقية تنقل أخباره العاطرة إلى البلاد العربية المجاورة، وصار الشباب العراقى المثقف يتبنى آراءه الفكرية ومذاهبه الأدبية، وقد طغت أنباؤه على أنباء رجال الفكر من المصريين الذين كانوا فى العراق قبله، وقد أخذ يصل الليل بالنهار ليفوز على سابقيه بقصب السبق. وقد صرح هو بقوله:

«وأعترف بأنى كنت أشعر بالغيرة تحز فى صدرى من أربعة رجال سبقونى إلى كسب ثقة أهل «العراق»، وهم الأساتذة: «محمد عبدالعزيز سعيد» و«أحمد حسن الزيات»، و«عبد الرزاق السنهورى» و«عبدالوهاب عزام»، فكان من همى أن أزاحم أولئك الرجال مزاحمة جدية، تجعل لى مقام صدق فى «بلاد الرافدين»، وقد وصلت بحسن النية وبرعاية الله إلى تحقيق ما أردت بلا مشقة ولا عناء...»

وقد استطاع أن يسبق هؤلاء الأساتذة، ويصل إلى قلوب أهل

«العراق» فى مدة وجيزة؛ بإخلاصه وصدقه وعمله المتواصل!...

كان يفرض على طلابه فى «دار المعلمين العالية» أن يكتب كل منهم بحثا جديدا لم يسبق إليه؛ لكى يعودهم الدراسات الأدبية، والبحث فى بطون الكتب، فينشأوا نشأة أدبية، قوامها البحث والاستقصاء والصبر على السهر فى غفوات الليل، وبذلك يزيد عدد الباحثين فى البلاد، وقد وجد فى أول الأمر بعض الصعوبة، ولكنه نجح فى مشروعه نجاحا طيباً، فأخذ طلابه يذكرونه بالخير، ويذيعون أنباءه، بكل فخار!.... وعندما رجع إلى مصر أخذوا يتتبعون أخباره وأبحاثه الأدبية بشوق ولهفة.

وعندما كان مدعوا فى مضارب «بنى تميم»، صرح بأن «العراق» أنساه «مصر»، وعندما سئل عن «ستريس» قال حتى «ستريس»، ويقول: «ومن واجبى أن أسجل فى هذه المذكرات أنى لم أر فى حياتى أياما أطيب من أيام «العراق»، وسأظل من أنصار «العراق» فيما بقى من حياتى».

وقد أقيمت له فى «بغداد» حفلة تكريمية كبرى فى فندق «استوريا»، أقامتها لجنة أدبية مؤلفة من الصحافيين، وقد رحب به فى هذا الحفل عدد كبير من أدباء «العراق» وشعرائها، وهم السادة «روفائيل بطى»، و«أنور شاؤل»، و«محمود فهمى درويش»، و «محمد هادى الدفتر»، و«عباس حلمى الحلى»، و «عبد الرحمن البناء». وقد تكلم فى هذا الحفل أيضا الدكتور «محمود عزمى المصرى»، وقد أرسل «الرصافى» قصيدة لتلقى فى الحفل.

ومما هو جدير بالذكر أن صاحب الفندق الذى أقيم فيه الحفل لم يتقاض شيئا من المال، مقابل ما قدمه إلى الحاضرين من الحلوى والشاى، مشاركا الشعب فى تكريم «زكى مبارك».

ومن مظاهر حبه للعراق دعوته للجامعة العراقية، لقد كان «زكى مبارك» متحمسا لإنشاء «الجامعة العراقية» كل التحمس. وقد دعا لهذا الجامعة فى مواطن كثيرة من أبحاثه. ومن يقرأ ما كتبه فى هذا الموضوع يحسبه أحد رجال التعليم فى «العراق»؛ لأنه كان مندفعا فى سبيل ذلك المشروع، وصرح فى إحدى مقالاته بأنه يتشرف بالتبرع بخمسة دنانير، تكون فاتحة مباركة لقوائم الاكتتاب.

وطالب الصحفيين بإثارة هذا الموضوع مدة شهرين فقط؛ لكى يقتنع بالمشروع كل عراقى مثقف.

لقد ملأ «زكى مبارك» عشرات الصفحات للدعوة إلى إنشاء «الجامعة العراقية»، وذلك فى عام ١٩٣٨، وقد توفى قبل أن يتحقق هذا المشروع العلمى الضخم. ولكن الأنباء الواردة من «بغداد» أخيرا تبشر بنجاح هذا المشروع، وستكون الجامعة العراقية حقيقة واقعة وسيرتاح «زكى مبارك» فى قبره لنجاح الاقتراح الذى قدمه قبل ثمانى عشرة سنة، وسيذكر العراقيون الرجل الذى كان متحمسا لهذا المشروع، والذى دعا له بكل صدق وإخلاص

وقد كان من المنتظر أن يجدد عقده سنة أخرى أو أكثر، وذلك لما

وجده فى « العراق » من حب وإخلاص ومجد ونجاح ، وما وجده فيه العراقيون من شمائل تغريهم بالالتفاف حوله سنوات عديدة ، ولكنه اعتذر عن مواصلة العمـل فى « العراق » ؛ لكى يستطيع طبع كتابه « التصوف الإسلامى » فى « القاهرة » ، ولو كانت فى « بغداد » مطابع فنية تستطيع القيام بذلك العبء لما تردد فى طبعه هنـاك .

وبسبب هذا الكتاب لم يتمكن من تجديد عقده ، وعندما علم المسئولون فى الوزارة بهذه الحقيقة تولتهم الدهشة ، وحاولوا عمل المستحيل ليثنوه عن عزمه ، ولكن إصراره على رأيه جعلهم يقبلون عذره بمزيد من الأسف ! ...

وقد كانت الأوساط الأدبية تنتظر منه المزيد من السنوات ، بعد أن ألفت إخلاصه للأدب العراقى ، أما تلامذته فقد صدموا عند سماعهم حقيقة الخبر ؛ لأنهم كانوا يطمعون فى قربه للإفادة من علمه وأدبه وإخلاصه ، وقد ظلوا على اتصال دائم به عندما كان فى « مصر » . . . وفى هذه الرسالة — التى بعث بها إلى أحد تلاميذه — شاهد صادق على مدى الحب المتبادل بينه وبينهم :

« إن عواطفك وعواطف إخوانك نحوى لا تكفينى للتعزية فى فراقكم ، فالله يشهد أنى فارقت « بغداد » ، وأنا محزون ؛ لأنى رأيت فيكم شمائل نبيلة ربطت قلبى بكم ، ولن أنسى كيف كنا نتحدث عن ألف مسألة ومسألة فى الدرس الواحد ، وكيف كنا نطوف بالأدب القديم والحديث ؛ كما نطوف بالبساتين ! . . . »

وقد قبل المسئولون اعتذاره عن عدم مواصلة العمل فى « العراق » وهم كارهون ، ولكنه طمأنهم بأنه سيكون مخلصا للعراق ، وسيعمل كل ما فى استطاعته لخدمة « العراق » ، ونشر أدب « العراق » وأكد لهم أن حبه للعراق والعراقيين سيزداد حرارة وقوة على الأيام ! . . .

— ٧ —

كان « زكى مبارك » يستعد للسفر ، بعد مرور تسعة أشهر من العمل المتواصل ، وكان يمنى النفس بالراحة والاستجمام بعد عناء الدروس ، وتوجيه الحركة الأدبية ، ومتاعب الامتحانات ولكن حدث شىء لم يكن فى الحسبان ، فقد اعتدى طالب عراقى بكلية الحقوق على الأستاذين المصريين الدكتور « حسن سيف أبو السعود » والدكتور « محمود عزمى » . . . اعتدى عليهما بالرصاص ثم ضرب نفسه فمات فى الحال . وقد كانت إصابة الدكتور « سيف » قاتلة ، ففارق الحياة وأما إصابة الدكتور « عزمى » فقد كانت خفيفة ، وكتبت له الحياة ! . . .

توفى الدكتور « سيف » فأصاب المسئولين فى وزارة المعارف العراقية الذهول ، وعقدت ألسنتهم الدهشة . ماذا سيقول المصريون فى مصر وكيف تتقبل وزارة المعارف بمصر هذا الخبر ، والصحف ؟ . . . كيف ستتحدث عن هذا الحادث المؤلم ؟ . . .

وعندما رأى « زكى مبارك » ما رأى وأحس بالجزع الذى أصاب

العراقيين من جراء هذا الحادث، أخذ يهون الخطب، ويعدهم بأنه سيدافع عن العراق حتى آخر نفس، وما تلك الحـــادثة إلا حادثة فردية بين طالب وأستاذه.

شمر «زكي مبارك» عن ساعد الجد وأخذ يستعد لخوض معركة، هي من أصعب المعارك الأدبية التي خاضها، منذ ما عرف أن يمسك القلم... تطوع للدفاع عن سمعة العراق، ومن غير «زكي مبارك» يحسن الدفاع عن العراق؟... وكتب مقالا شرح فيه ظروف الحادث، وطالب الصحافة المصرية بتهدئة الخواطر، وحذر من الفرقة، وتعكير صفو الصلات بين «مصر» و«العراق» وأرسل المقال تلو المقال إلى جريدة الأهرام في «القاهرة».

ويقول في هذا الحادث:

«إن فاجعة الأمس تشرف مصر، وهل كتب القتل إلا على الرجال كل ما أخشاه هو أن تكون هذه الفاجعة وقودا للدسائس الأجنبية..».

وقد وقع ما كان يخشاه «زكي مبارك» فقد أخذت الأقلام في «مصر» تعلق على الحادث، وتزيد شقة الخلاف، وعندما وصل إلى «القاهرة» وجد الصحفيين يزيدون النار ضراما، فصمم على قهرهم... ومن تعليقاته الطريفة على أحد الصحفيين:

«وتذكرت أنه... يؤدى مهنة صحفية، والصحفيون يؤذيهم السلام

لأنه يقلل عدد القراء، فمن واجبه نحو مهنته أن يصرخ ويستغيث ليزيد عدد القراء ألفا أو ألفين! ... ولكن التهويل فى فاجعة بغداد يباعد بين أمتين شقيقتين هما «مصر» و«العراق».

ثم مضى لهذا الكتاب وأخذ يقنعه بالكف عن الكتابة فى هذا الموضوع، الذى لايورث إلا الخسران. ثم أخذ يقابل كبار الشخصيات، ويشرح لهم ظروف الحادث، وقد زادت غرابته عندما وجد أكثر هؤلاء قد تلقفوا الأخبار محرفة كل التحريف، بحيث تزعج السامع وتثير أعصابه.

أخذ «زكى مبارك» يرد قالة السوء عن «العراق»، حتى اتهم بالرشوة واتهموه بأنه يدافع عن «العراق»، ليحفظ وظيفته فى «العراق» بينما هو قد اعتذر عن عدم مواصلة العمل قبل وقوع الحادث، وقبل أن يشرع فى الدفاع عن سمعة «العراق».

وبعد اتصالات عدة بينه وبين أصحاب الصحف أخذت تلك الحملة تتزايل حتى أصبحت فى ذمة العدم بعد مرور شهرين تقريبا، واستطاع هذا الأديب أن يبقى على الصلات الودية بين شعبين عربيين شقيقين. واستطاع هذا الأديب أن يقهر الصحفيين أدباء الهوى، ويسكتهم؛ لأنه ينشد الإصلاح وهم ينشدون الخلاف.

واستطاع هذا الأديب أن يرد كيد الدخلاء الذين اشرأبت أعناقهم عند وقوع الحادث، ليتدخلوا ويفرقوا، فوقف فى وجوههم وقفة الأسود.

وليس هذا فقط ... بل مضى يذكر العراق بكل خير وينشر عنه أبحاثا مسهبة فى « مجلة الرسالة » ، عن الأدب العربى الحديث فى « العراق » و « الأندية الأدبية فى العراق » و لا الصحافة العراقية » ، و « التعليم فى العراق » و « التعاون بين « مصر » و « العراق » .

ولم ينس العراقيون هـذه اليد البيضاء من صديق « العراق » « زكى مبارك » ، بل أخذوا يتحدثون عنه فى صحفهم ، ويشكرونه على ذلك الموقف الجبار الذى يعجز عنه أصلب الرجال ! . . .

ثم تمر الأيام و « زكى مبارك » باق على العهد يحب العراق ، ويحبه أهل « العراق » ، وبعد مضى سنتين ، أى فى صيف ١٩٤٠ تلقى برقية من صديقه « السيد عبد القادر أحمد » ، يهنئه بوسام « الرافدين » ، الذى منحته الحكومة العراقية له ، وذلك على جهوده الجبارة التى بذلها عند ما كان فى « العراق » ، والجهود الجبارة التى بذلها المدفاع عن « العراق » فى حادثة « كلية الحقوق » ، والجهود المشكورة التى بذلها بعد ذلك فى كتاباته عن « العراق » و « أدب العراق » فى « صحف مصر » .

وأسهمت « الصحافة العراقية » فى تكريمه ، فأصدرت « جريدة الهدف » عددا خاصا عن « زكى مبارك » صديق « العراق » ، كتب فيه السادة « عبد الحيد حسن الغزالى » ، و « حميد مجيد الهلالى » و « عبد المجيد لطفى » و « عبد المحسن القصاب » و « عبد السلام حلمى » و « عبد الرحمن البناء »

و « روبين عويديا » و « صالح البدرى » و « عبد الرزاق الهلالى » .

وقد هنأه الشاعر المصرى « محمد عامر بحيرى » بقصيدة نقتطف منها هـــذه الأبيات :

إن الوسام الذى أعطيته ثقة الرافدين وحق غير مهضوم
سفارة لك فى الأقطار يحمدها ساع يؤلف ما بين الأقاليم
فانهض « مبارك » للجلى بلا وهن ما كان مقتحم الجلى بمهزوم

أما هو فقد تقبل الوسام وتحيات الأدباء فى « العراق » بالشكر ، وقد علق على هذا التقدير قائلا :

« وقد فكرت كثيرا فى الأسباب التى جعلت لى هذا الحظ المرموق فى « العراق » ، ثم رأيت أن الأسباب كلها تنتهى إلى سبب واحد وهو الصدق ، فما تحدثت عن « العراق » بالجميل ، إلا وأنا صادق ، ولا ذكرته بالملام إلا وأنا صادق . وإذا قيل إن « العراق » يجزينى وفاء بوفاء وإخلاصا بإخلاص ، فأنى أقول : إنى سأقضى دهرى كله مدينا للعراق ، ولن أستطيع أداء ما للعراق فى عنقى من ديون ، ولو بذلت دمى وروحى فى حب « العراق » وأهل « العراق » » .

هذه قصة « زكى مبارك » فى العراق أوجزنا فيها الكلام إيجازا ، ولو أردنا بسطها بشىء من التوسع لضاق نطاق هذا الكتاب الصغير ! . . .

كتاب عبقرية الشريف الرضى

هـذا الكتاب هو مجموعة المحاضرات التى ألقاها « زكى مبارك » فى « كلية الحقوق » ببغداد ، وقد لاقت كثيرا من التأييد والتشجيع ، مما جعل المحاضر يمضى فى متابعة دراسة الشاعر حتى النهاية . و « الشريف الرضى » ليس غريبا عن « زكى مبارك » ، ولم تكن أول معرفته به عندما ذهب إلى « العراق » ، بل كان على اتصال وثيق به منذ أمد بعيد . فهو أستاذه الرائد الذى كان معجبا به ، ومُجلًّا طموحه للمجد والعلياء ، وكان يجد فى شعره نفحات الخلود ، ويجد فى سيرته الإباء والشمم ، ويجد فى أخباره العزة والكرامة .

وعندما طلب منه « نادى الموظفين » بالقاهرة إلقاء محاضرة عن أعظم شاعر فى اللغة العربية سنة ١٩٣٢ ، كانت محاضرته عن « الشريف الرضى » .

وعندما كتب الدكتور « طه حسين » عن شعراء القرن الثالث ، أخذ « زكى مبارك » يذكره بالكتابة عن « الشريف الرضى » ؛ لأنه أولى من أولئك الشعراء . وعندما أخرج الأستاذ « عباس العقاد » كتابه عن « ابن الرومى » ، قال له « كان الأفضل يا أستاذ أن تنفق هـذا الجهـد فى دراسة أشعار « الشريف الرضى » . . .

وقد اطلع ، وهو فى « بغداد » ، على كتاب « أمراء الشعر فى العصر

العباسي » « لأنيس المقدسي » ، فرآه يهتم بكثير من الشعراء منهم : « أبو العتاهية » ، وينسى « الرضى » ، مع أن ديوان « أبي العتاهية » لا يساوى قصيدة واحدة من قصائد « الشريف » كما يقول ، فوجد الفرصة مناسبة لإنصاف هذا الشاعر الذى تعصب له منذ وقت طويل .

والذى جعل « زكى مبارك » يستغرب غاية الاستغراب ، هو سكوت النقاد عن أشعار « الشريف » ، وعدم إقدام أحد الباحثين على إصدار كتاب عنه ، بل أكثر من ذلك رأى بعض أساتذة الأدب فى مصر يجهلون أشعار « الرضى » ، فمن ذلك أن الأستاذ الشاعر « على الجارم » سأله عن المصدر الذى يثبت أن هذه الأبيات هى « للشريف » :

ولقد وقفت على ديارهم وطلولها بيد البلى نهب

فبكيت حتى ضج من لغب نضوى ولج بعذلى الركب

وتلفتت عينى فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

سأله عن مصدر هذه الأبيات ، وأكد أنه لم يجدها فى ديوان « الشريف الرضى » ، بينما هى مثبتة فى الديوان . ويقول هو :

« وكان ذلك دليلا على أن « الشريف » منسى ، لا يعرف ديوانه رجل فى منزلة « الجارم » ، وهو شاعر مجيد » !؟ . . .

وهو لا ينكر أن « الشريف » شاعر معروف فى اللغة العربية ، وأن اسمه يتردد حتى فى اللغات الأوروبية ، ولكنه يرجع سبب شهرته إلى عاملين

اثنين : الأول عامل سياسى ، وهو تعرضه للخلفاء بنى العباس فى شعره ، فمن ذلك هذه الأبيات :

ما مقامى على الهوان وعندى مقول صارم وأنف حمىٌّ
وإباء محلق بى عن الضيـــم كما راغ طائر وحشىٌّ
ألبس الذل فى ديار الأعادى وبمصر الخليفة العلوىٌّ
إن ذلى بذلك الجو عز وأوامى بذلك النقع رىٌّ

والعامل الثانى — الذى قضى بنباهته هو « كتاب نهج البلاغة » ، الذى جمع فيه كلام أمير المؤمنين « على بن أبى طالب » ، فحامت حوله الشبهات ، واعتبره بعض الباحثين من تأليف « الرضى » . وأكد غيرهم من الباحثين أن هذا الكتاب هو « للإمام على » بدون شك ، ولكل من الفريقين أدلة وبراهين .

ولن نتعرض لرأى الفريقين ، وإنما سننقل رأى « زكى مبارك » نفسه ؛ لأنه رأى قيم ، صادر من باحث مخلص للأدب العربى والبحث العلمى ، وقد تعرض لآراء كل من الفريقين .

هذان العاملان هما اللذان نبه بهما الشريف فى نظر المؤلف ولولاهما لما تردد اسمه فى كتب الأدب القديم ، ولولاهما لكان منسيا فى عالم الأدب .
وتاريخ الأدب أمره عجب ، فبينا نجده يخلد أسماء لا تستحق الخلود ، نجده يهمل أسماء يجب أن تذكر بالعز والفخار ، وليس فى هذا الكلام غرابة

أو مبالغة ، وأقرب دليل ملموس بالنسبة إلينا هو « زكى مبارك » نفسه ، هذا الرجل الذى نتحدث عنه . فهو بالرغم من الدوى الهائل الذى أحدثه فى عالم الأدب ، لم نجد من ينصفه ، بعد أن طواه الردى ، وكان فارس الميدان المجلى وكانت أخباره على كل لسان ، أما الآن فقد نسى ولم يعد يذكره أحد .

وكتاب « زكى مبارك » عن الشريف جعل الباحثين العرب يهتمون به ، ويحفلون بأشعاره وسيرته ، وقد صدرت كتب عنه بعد كتاب « عبقرية الشريف الرضى » والفضل للسباق ، وقد تساءل المؤلف عن سكوت الأدباء عن الشريف فقال :

« أليس من العجيب ألا يعرف قبر « الشريف الرضى » على التحقيق ، فيقام له ضريح فى « الكاظمية » ، مع أن مترجميه ينصون على أنه دفن فى « كربلاء » ؟ . . . أليس من العجيب أن يطبع ديوان « الشريف » منذ ثلاثين سنة (كان هذا الكلام فى سنة ١٩٣٨ م) ، فى وطن غير وطنه ، ثم لا يعاد طبعه بعد ذلك الحين ؟ . . . ولو كان ديوان « الشريف الرضى » فى لغة الفرنسيين أو الإنجليز أو الألمان لصنفت فى شعره مئات المصنفات ، وأقيمت له عشرات التماثيل . . . » .

وقد أنصف المؤلف « الشريف الرضى » كل الإنصاف فتكلم عن ثقافته ومقامه بين شعراء القرن الرابع ، وصلاته بخلفاء بنى العباس ، وعلاقته بالوزراء والملوك

وتكلم عن أعوام البؤس فى حياته ، وأفرد فصلا نفيسا عن العلا والمعالى فى شعره ، وفصلا قيما عن مكانته فى الكتابة والتأليف . وفى الجزء الثانى تكلم عن وفائه وغرامياته وعفافه وحجازياته ، وتطرق لذكر بكاء الشباب فى أشعاره ومراثيه وموضوعات أخرى قيمة ، وكانت طريقته فى البحث طريقة فريدة فهو يقول :

« سايرت « الشريف » مسايرة الصديق للصديق ؛ فإن آمن آمنت ، وإن كفر كفرت ، إن جدد « الشريف » جددت ، وإن لعب لعبت ، إن عقل الشريف عقلت ، وإن جن جننت ، إن قال « الشريف » : إن غاية الرجل العظيم هى الحرب ، قلت : صدقت ، وإن قال : إن الحياة هى الحب ، قلت : والحب الحياة ! . . .

ولكنى مع هذا عاملته معاملة الصديق الأمين ، فنبهته إلى عيوبه بتلطف وترفق ، نبهته تنبيهـــا دقيقا جدا لا يفطن إليه إلا الأذكياء ، نبهته إلى عيوبه أكثر من سبعين مرة . وما أظنه يحقد على ؛ لأن الصديق الذى فى مثل حالى تغفر له جميع الذنوب . . . »

وللزكى مبارك ، رأى خاص فى كتاب « نهج البلاغة » ، أثبته فى الجزء الأول من « كتاب عبقرية الشريف الرضى » ننقله باختصار :

« التزيد على أمير المؤمنين أمر واقع ، والتنصل منه جهل ، ولكن المشكلة هى وضع « نهج البلاغة » فى موضعه الصحيح .

عندنا فى هذا المقام مشكلتان : الأولى ـ « عبقرية على بن أبى طالب » ، عبقريته الخطابية والإنشائية ، والثانية — ضمير « الشريف الرضى » .

كان على خطيبـا مفوّها ، وكان كاتبا فصيحـا فأين ذهبت آثاره فى الخطابة والإنشاء ؟ . . . وهل يعقل أن تضيع آثاره وحوله أشياع يحفظون كل ما ينسب إليه ؟ . . .

هل يعقل أن يحفظ الناس أشعار العابثين والماجنين من أهل العصر الأموى وينسوا آثار خطيب قتل بسببه ألوف وألوف من أبطال الحروب ؟ . . .

وأين العقل الذى يقبل القول بأن « عليا » لم يحى بيانه إلا فى الآثار المفتريات ؟ . . .

أما ضمير « الشريف الرضى » فهو عندى فوق الشبهات ، وهو قد خدم التشيع بالصدق لا بالافتراء ، فأن كان قد جمع آثار « على بن أبى طالب » خدمة سياسية لمذهب التشيعُ فهـو ذلك ، ولكنها خدمة أديت بأسلوب مقبول ، هو إبراز آثار « أمير المؤمنين » .

عاش « الشريف » فى بلية من غدر الاهل والأصدقاء ، ومن كان فى مثل تلك الحال لا يجد من يسترعيه حين يزور كتابا على أمير المؤمنين « على بن أبى طالب » ، ولو أنه كان اخترع كتاب « نهج البلاغة » لوازلت الأرض

تحت قدميه ، ولكان أخوه نفسه أول من يذيع عنه الأراجيف "(١)" .

أنا لا أقول بأن مجموعة « نهج البلاغة » صحيحة النسب إلى أمير المؤمنين في كل ما اشتملت عليه ، ففيها فقرات وفصول ينكرها الناقد الحصيف ، ولكني أقول بأن آثار « علي بن أبي طالب » تعرضت لمثل ما تعرضت له سائر الآثار الأدبية والسياسية والدينية ، ثم أجزم بأن ما فات « الشريف » لم يقع عن عمد ، وإنما وقع عن جهل ، بما تعرضت له سائر الآثار من الافتراء . أما اتهامه بالكذب على أمير المؤمنين في سبيل النزعة المذهبية ، فهو اتهام مردود ، ولا يقبله إلا من يجهل أخلاق « الشريف » .

ومهما تكن حال « نهج البلاغة » فهو وثيقة أدبية وتاريخية وسياسيه قليلة الأمثال ، وهو كذلك ثروة أدبية ولغوية تؤرخ اللغة في ذلك العهد ، وهو أيضا يصور ما فهم العرب من أصول السياسة والمعاش وتدبير الملك في أعقاب عصر النبوة . هو في جميع الاحتمالات خدمة أداها « الشريف » إلى اللغة والأدب والسياسة والأخلاق .

وإني لأعتقد أن النظر في كتاب « نهج البلاغة » يورث الرجولة

---

(١) وجاء في كتاب النثر الفني :

« وقد أراد المسيو « ديمبين » أن يغض من قيمة ما نسب إلى « علي أبي طالب » من خطب ورسائل ، استنادا إلى ما شاع منذ أزمان من أن « الشريف الرضي » هو واضع كتاب « نهج البلاغة » . أما نحن فنتحفظ في هذه المسألة كل التحفظ ، لأن « الجاحظ » يحدثنا أن خطب « علي » و « عمر » و « عثمان » كانت محفوظة في مجموعات ، ومعنى هذا أن خطب « علي » كانت معروفة قبل « الشريف الرضي » »

والشهامة وعظمة النفس؛ لأنه فيض من روح قهار، واجه المصاعب بعزائم الأسود.

وهناك خدمة ثانية أداها كتاب «نهج البلاغة» للغة العربية؛ فقد كان فرصة ثمينة لحركة الأفهام والعقول. ألا تعرفون «شرح أبي الحديد»؟... إن ذلك الشرح هو من ذخائر اللغة العربية؛ ففيه فوائد أدبية ولغوية وتاريخية وفقهية، لا يستهين بها إلا الغافلون عما في ماضينا الأدبي والعلمي من أطايب وفرائد وآيات».

هذا هو رأي «زكي مبارك» نقلناه باختصار، وهو كما يرى القارئ نموذج من البحث العلمي الذي يعتمد على الإخلاص والصدق، فهو يثبت أن «نهج البلاغة» من كلام «الإمام علي»، وأن «الشريف»، جامع الكتاب لاتسمح له مكانته العلمية بالتزيد على «أمير المؤمنين»، ويرى من جانب آخر أن الكتاب فيه بعض فقرات وفصول، يحتمل أن تكون قد زيدت على الكتاب قبل عصر «الشريف».

وقد كان بودنا لو أنه جاء بشواهد تؤيد رأيه الأخير، بخصوص الفصول والفقرات التي أضيفت على كتاب «نهج البلاغة». إنه لو فعل ذلك لمهد الطريق أمام الباحثين الذين يتعرضون لهذا الكتاب بالنقد والتحليل. ولكنه اكتفى بالإشارة إلى تلك الزيادات، دون إيراد نماذج منها، وهذه هي الناحية التي ينقصها بحثه الممتع.

الناقد الثائر

إذا ذكر النقد الحديث فى الأدب العربى ، وإذا ذكر الناقدون المحدثون فأن «زكى مبارك» يذكر مع النقد والناقدين بكل فخر ... لقد شغل ميادين النقد فى اللغة العربية أكثر من ثلاثين سنة كان فيها الفارس المجلى بين فرسان النقد ، وكان جريئا ينزل إلى الميدان بكل شجاعة ، فيصاول أهل الفكر ويبارز الأدباء الأعلام ، وفيهم كثير من أساتذته ، فيشن عليهم الحملات المنظمة حتى يرغمهم على الانهزام . ولم يكن يكتفى بمقالة أو مقالتين فى هجومه على المنقود ، بل كان يدبج المقالات الطوال ، وكل مقال يختلف عن الآخر كما رأينا نقده الذى هاجم فيه الأستاذ «أحمد أمين» فى «مجلة الرسالة» .

ونقده ليس هجوما صرفا فيمله القارىء ، وإنما يتخلله الشىء الكثير من الملح والفكاهات والنوادر التى تجعل القارىء يتابع سلسلة مقالاته فى النقد وأذكر أنه أراد أن يقطع سلسلة نقده عن الأستاذ «أحمد أمين» ، فنشر أحد القراء خطابا فى الرسالة يرجوه ألا يفعل ، ويحثه على مواصلة النقد .

وقد رأينا كيف احترمه أساتذته فى «السوربون» وأقاموا له حفلا تكريميا ورأينا كيف هاجم آراء أستاذه المسيو «مرسيه» فى عقر داره ، وفى أروقة «جامعة السوربون» ، وكان طالبا فيها .

وكانت له طريقة فريدة فى نقد الأدباء وأفكارهم ، لايشاركه فيها أديب آخر . وقد أفاد منه القراء فائدة كبيرة ، لأنه رسم لهم الطريق ومهده أمامهم ، وبذر فى نفوسهم الشجاعة والإقدام . فكانوا يتلقفون ماينشره عليهم من النقد بشوق ولهفة ، ويتابعون معاركه الأدبية بكثير من الاهتمام والتقدير . ويقول الأستاذ « محمد رجب البيومى » فى مقـــال له بالعدد الممتاز من « الرسالة » فى عامها العشرين ، وذلك قبل موت « زكى مبارك » بأسابيع :

« ولا أذكر أن كاتبا اغتصب أكثر أحاديثنا فى فترة الدراسة الثانوية كما اغتصبها الدكتور « زكى مبارك » ، فقد وقف فى ميدان « الرسالة » كما يقف الملاكم فى ميدان الرياضة ، يصارع هذا فى عنف ، وينافس ذلك فى حدة ، يثير فى الأفق الأدبى عواصف شديدة عاتية ، وكنا نعجب بسلاسته واندفاعه وكانت روحه الفتية تحلق بنا فى أوج شاهق ! ... »

وهذا النقد نفسه هو الذى جعله يفقد أصدقاءه الواحد بعد الآخر ، وذلك لأنه لم يكن يجامل الأصدقاء ولا الزملاء ، وإذا تناول كتابا لأحدهم ورأى فيه ما يدعو إلى تشريحه ونقده ، لم تمنعه مجاملات الصداقة أو الزمالة عن المضى فى نقد الكتاب بالصورة التى يريدها ، وبالصورة التى يراها مفيدة للقراء الذين يتطلعون إلى نقده بشوق زائد .

فأذار أى أصدقاؤه وجوههم ، أخذوا فى مناوشته ، ثم ينالهم التعب ، ويصاحب

التعب شيء كثير من الثورة والغضب على هذا الأديب، الذى لا يعرف المجاملة، فينفضون من حوله، وهو مستغرب من ثورتهم وغضبهم، لعلمه أن النقد فن من فنون الأدب، ليس فيه نفاق ولا مجاملة.

وقد خاطبه الأستاذ «خليل هنداوى» قائلا: «إذا تركك النقد أيها «الدكتور» تضيع أصدقاءك، فأنا نريد أن يحملنالك من الأصدقاء». وقد بلغه عندما كان فى «العراق» أن كاتبا يتحداه فى «مجلة الرسالة» فقال:

«يرحم الله الأيام الماضية، حين كان الأدباء يتهيبون المرور فى طريق. وحين كانت مقالاتى فى «جريدة البلاغ» كالسيف المصلت على رقاب الكتاب والشعراء والمؤلفين»!...

«ان الذين يعادوننى لا يعرفون عواقب ما يصنعون... إنهم لا يعرفون أن العداوات تمد دمى بفيض من قسوة الحديد... إنهم يجهلون أن العدوه يفسد أمعائى، ويحوجنى إلى زيارة الطبيب: فأوغلوا ما شئتم فى البغضاء؛ فأن لى فى ذلك مغانم كثيرة تصل على أيديكم بلاجزاء ولا ثواب.

وأنتم يا قرائى، ما رأيكم؟... أترونى من الأشرار؟... وكيف وما كنت فى حياتى باغيا ولا عاديا، لقد ابتدأت حياتى الأدبية بأناشيد الحب والجمال، ولو خلانى الناس وشأنى لعشت بلبلا وديعا، لا يسمعون منه غير أنغام الحنين، ولكن لؤم اللئام حولنى إلى إعصار عاصف، يمحق ما يصادف من اليابس والأخضر، والطير والحيوان».

وقد كان ينتقى عناوين مقالاته انتقاء عجيبا، تؤثر فى القارىء، وتجعله ينجذب إليها لأول نظرة. فمن ذلك أنه رأى أربعة من الأدباء يناوشونه فى «جريدة البلاغ»، فرد عليهم بعنوان «سنفرغ لكم أيها الثقلان» وذلك باقتباس هذا العنوان من «القرآن الكريم» وفيه من التهديد مايهد الجبال.

قلنا إنه كان يفقد أصدقاءه بسبب ما يكتبه عنهم فى ميادين النقد، ومن هؤلاء الشاعر «أحمد شوقى»، فقد طلب منه أن يكتب مقدمة لديوان «الشوقيات»، وقبل فى بادىء الأمر، إلا أنه عاد فتذكر أن تلك المقدمة ستفرض عليه شيئا من المجاملة تمنعه من نقد شعره فى المستقبل، فأحجم عن كتابة المقدمة، واعتذر له بعد أن بين له هذا السبب، فغضب «شوقى»، وقاطع صديقه «زكى مبارك» الذى أبدى رأيه بصراحة.

وفى كتاب «الموازنة بين الشعراء» «لزكى مبارك» مدح فائق «لشوقى» وشعره، ويقول الأستاذ «محمد رجب البيومى» فى تعليل هذا المدح: إن «شوقى» كان يغدق عليه من ذهبه. وهذه الحقيقة جهر بها «زكى مبارك» نفسه، عند ما قال إن أحد كتبه لم يقدر له أن يرى النور لولا معونة «شوقى» المالية.

وهذا لا يمنع هذا الناقد من إثبات رأيه الصريح فى «شوقى»، إن تصدى له بالنقد والتحليل. و«زكى مبارك» من المعجبين بشعر «شوقى» كل الإعجاب، وقد نصح القارىء فى ديوان «ألحان الخلود» بقراءة ثلاثة

دواوين من الشعر ، إن أراد النغمة الموسيقية ، وهي : « ديوان البحتري » و « ديوان الشريف الرضي » و « ديوان شوقي » . ومن المعلوم أن ديوان « ألحان الخلود » صدر في سنة ١٩٤٧ م ، أي بعد وفاة شوقي بخمس عشرة سنة ، ومعنى هذا أنه معجب بشعر « شوقي » كل الإعجاب ، قبل أن يغدق عليه شوقي من ذهبه كما يقول الأستاذ « البيومي » .

وهجومه على الأدباء المعاصرين ، واشتباكه معهم في معارك قلمية عنيفة وثورته على أفكارهم بقوة وجرأة ، جعل بعض النقاد ينشرون كلمات طريفة عنه ؛ كتلك الكلمة التي كتبهـــا الأستاذ « عبد الله حبيب » ، ومن قوله :

« وصاحبنا ـ صنع الله له ـ كأنه خلق بغير فرامل ، أو هو كالسيارة الضخمة التي لا تقوى فراملها على ضبط توازنها ودقة سيرها فهو أنى سار لابد له من حادثة تصادم !!! . . . وليس في استطاعة كاتب أن يحصى في مثل هذه الصورة الوصفية كل أحداثه .

كل ذلك يقع في مصر ، ثم لا تجد حكومة من حكوماتها المتعاقبة تفكر في سن تشريع جديد ، يحمى الناس من مثل هـذه الهوسة العقلية ، ولم لا يكون في مصر ـــ ما دام فيها « زكي مبارك » ـــ نظام مرور للكتاب والمؤلفين ؟ . . . فتعين الحكومة فريقاً من « الكونستبلات » يتولون حفظ نظامهم ، ويمنعون بإشاراتهم مثل هذه المصادمات التي يحدثها صاحبنا ، ومن

سيخلق على طرازه فى مقبل الأيام؟... وهل يليق بحكومة متمدنة أن تدع مثل «زكى مبارك» يروع الناس كل يوم بحوادث التصادم التى يرتطم فيها، دون أن يخشى على رأسه أو رءوس الناس!....

نقلنا هذا الكلام من مقال الأستاذ «عبد الله حبيب» برهانا على قوة «زكى مبارك» فى ميادين النقد؛ فقد كان الأدباء يتهيبون نزاله، وكان قلمه الصوال مسلطا على أفكار الأدباء وآرائهم، وكانوا يحسبون له ألف حساب.

وبالرغم من الحقائق الثابتة التى جاءت فى كلمة الأستاذ «حبيب» إلا أنهـا لا تخلو من طرائف وفكاهات، لا تخفى على القارىء الكريم.

و «زكى مبارك» هذا الناقد الثائر الذى دوخ الأدباء، حتى تمنوا له الموت لكى يرتاحوا منه. هذا الأديب القوى الصريح، الذى لم يسكت أبداً عن رد الهجوم، سواء صدر من كبار الكتاب أو صغارهم؛ ـ هذا الناقد العنيف ترك الكتابة فى «مجلة الرسالة» لأن الأستاذ «محمد أحمد الغمراوى» أخذ يهاجمه فى الرسالة بسلسلة مقالات بعنوان «القرآن الكريم فى كتاب النثر الفنى» متهما إياه بالإلحاد، وبدلا من أن يقذفه بالنار والحديد، ويدحره أشد الاندحار، نجده يترك الكتابة، ويعتزل النقد، ويحتج على «الأستاذ الزيات»، ويتضايق منه.

إن الزيات لم ينشر نقد «الغمراوى» إلا عملا بحرية النشر، وما كان منتظرا أن يتضايق فارس النقد، وما كان من المنتظر أن يهجر قراءه

« الرسالة » بعد سنة ١٩٤٤ م ، أولئك القراء الذين كانوا يتشوقون لقلائد أفكاره فى الأدب والنقد . ويظهر أنه استكثر أن ينشر « الزيات » تلك المقالات للأستاذ « الغمراوى » ، فظن فى نفسه أن « الزيات » يريد أن يبعده عن « الرسالة » ، فامتنع عن الكتابة فى مجلة الرسالة منذ ذلك الوقت .

امتنع عن الكتابة فى الرسالة بالتدريج ، حتى إن أكثر القراء لم يعرفوا سبب انقطاعه ، وإن كانوا يعرفون أنه متضايق من « الأستاذ الزيات » ؛ لنشره مقالات « الغمراوى » ، لأنه نشر مقالا بعنوان « فى كل يوم لنا عقاب جديد » ، عاتب فيه « الزيات » ، وحمل فيه على « الغمراوى » ، ونشر بعد ذلك مقالا آخر ، هاجم فيه « الغمراوى » أيضا .

وأخذ يرد هجمات الأستاذ « دربنى خشبة » من جهة أخرى ، حول « وحدة الوجود » فى كتاب « التصوف الإسلامى » .

ونشر مقالا عاطفيا فى « الرسالة » فرأى فيه « الغمراوى » ملاحظة تتصل بالقرآن ، فهجم عليه من جديد فى « الرسالة » ، فرد « زكى مبارك » ورد « الغمراوى » . وهذه الردود الأخيرة بعيدة عن النقد الصحيح كل البعد ، فكل منهما أخذ يهاجم صاحبه هجوما شخصيا ، يستعمل فيه عبارات قاسية ، وكلمات نابية ، وقد كان رد « الغمراوى » فى آخر عدد من أعداد « الرسالة » لسنة ١٩٤٤ م . وقد كان « لزكى مبارك » قصيدة فى نفس العدد بعنوان « غرام يوم الثلاثاء » بعد أن نشر مقدمتها فى عدد سابق .

ولم ينشر «زكي مبارك» في الرسالة بعد هذه القصيدة إلا تعقيبا صغيرا في أول سنة ١٩٤٥ م بعنوان: «عرب ومسلمون»، وهو عبارة عن نقد بعض النقاط في إحدى المسرحيات التي مثلتها إحدى المدارس الثانوية، وبعد هذه الكلمة لم ينشر شيئا في الرسالة حتى وفاته.

وانقطاع «زكي مبارك» عن «الرسالة» عبارة عن حالة نفسية أصابته بعد مقالات «الغمراوي»، لاسيما إذا علمنا أن عمله في «الرسالة» في مدى سبع سنوات كان بدون مكافأة مالية، وكان يعتبر ذلك العمل خدمة وطنية لايتقاضى عليها أجرا... وكان يعتقد في نفسه — كما يعتقد القراء — أن نجاح «الرسالة» ذلك النجاح الباهر في تلك الفترة كان له منه أكبر نصيب.

وقد كان انقطاعه عن «الرسالة» خسارة للأدب، فهو بعد أن كان يتحفظ في كتاباته في «الرسالة»، رأيناه يكتب في صحف أخرى، كتابات تنكرها كتاباته الرصينة السابقة وتسيء إلى سمعته الأدبية ومكانته العلمية.

وكان يكتب في الرسالة بأمضاءات مستعارة إلى جانب اسمه الحقيقي: وهي «الكاتب الكبير» وهي تسمية أطلقها عليه «الأستاذ الزيات». و«الأديب المجهول»، وكان ينشر شعرا بأمضاء «الشاعر المجهول».

ثورة على الأوضاع

كان «زكي مبارك» صريحا بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وقد رأينا أمثلة من تلك الصراحة فيما مر بنا من فصول، ونحاول في هذا الفصل إظهار ناحية أخرى من صراحته، وهي صراحته في نقد الأوضاع الشاذة، التي كانت سائدة في ذلك الوقت.

نشر في إحدى افتتاحيات «مجلة الرسالة» نقدا «لخطاب العرش»، فقامت قيامة رئيس الوزراء السيد «علي ماهر»، وقطع اشتراكات الحكومة في «مجلة الرسالة»، فسارع «الزيات» لتسوية الموقف، ولكن رئيس الوزراء قال: «أنا لا أحب أن أسمع اسم «زكي مبارك»، لقد قضيت تسع ساعات في تحرير خطاب العرش، وهو مع ذلك يريد أن أكتب كما يكتب «الجاحظ...»

وحاول المسئولون إجباره على الاعتذار في «الرسالة»، وهددوه بفسخ العقد الذي بينه وبين وزارة المعارف، فأصر على رأيه ولم يعتذر وقال: «إني لا أعتذر عن مقال كتبته وأنا أعتقد أنه حق، وللوزير أن يفسخ العقد، فمن الفضيحة «لوزارة المعارف» أن يكون أحد كبار المفتشين بها موظفا بعقد...»

وقد كتبت إحدى الجرائد الوفدية افتتاحية بعنوان: نقد «خطاب العرش»؛

كابرى « الأستاذ الكبير الدكتور «زكى مبارك» فزاد الأمر خطورة . وأثار أحد النواب إحدى ملاحظات الناقد فى « مجلس النواب » ، فتأزمت الأمور بين« زكى مبارك » وبين المسئولين فى« وزارة المعارف » . ولكن «الوزارة» لم تستطع فصله من التفتيش خوفا من إثارة الموضوع فى الجرائد الوفدية .

وفى سنة ١٩٤٦ م ، ثار طلبة الجامعة على رئيس الوزراء «النقراشى» ، فأمر « البوليس » بأطلاق الرصاص عليهم فوق أحد الجسور ، فألقى الطلبة بأنفسهم فى مياه النيل ، فنجا من يجيد السباحة ، وغرق من لا يجيدها . وقد نشرت الصحف أن خمسا وعشرين جثة فى القناطر الخيرية، غير الجثث التى لم يعثر عليها فثار مع الشعب وهو الأديب الحساس، واستنكر هذا العدوان الصارخ على أبناء الجامعة ، ونظم قصيدة طويلة جاء فيها :

يا زاحفين على الشبان فى صلف   كأنكم فى شعاب الحرب فرسان
بأمر من صوبت بغيا وموجدة   إلى صدور الشباب الغض نيران
طرتم إليهم سراعا فى بواكركم   والسيف فى يدكم جوعان ظمآن

جنود من شباب المجد هاموا   هيـــام اللفظ بالمعنى الصحيح
فكان جزاؤهم طعنا وقتلا   وتشريدا بأودية الجـــروح
مئات من شباب المجد طاحوا   ألا إن العواقب للمطيح

لا بأس لا بأس إن المجد صورته   فى أنفس الصيد أخطار وأهوال

يا ذاهبين ولم أشهد جنـــازتهم — والدمع فى القلب دفاع وهطـــال
لاتحسبوا أنكم متم فـــا خلقت — للموت روح بها الأمجاد تختـــال

وعالج فى إحدى مقالاته وضع الشباب الحائر ، وحمل المسئولين تبعة ماوصل إليه الشباب من تدهور فقال :

« . . . المسئول عن هذا التدهور هو الفريق الجبان من الرؤساء ، الذين لا يأسون بغير الضعفاء . ولا يسلمون الأعمال إلا لكل شاب رخو ، لا ينتظر منه إلا كلمة « بيك . . . أفندم » كما كان يقول الأتراك . وأين أين الرئيس الذى يحب فى مرءوسيه إباء النفس ، وقوة الشكيمة ، وصلابة العود ؟ . . .

أين أين الرئيس الذى يعد مرءوسيه ليكونوا ذخر الوطن ورجاء البلاد ، فيوصيهم بالترفع عن الصغار والذل ، ويغريهم بحب البـــأس والاستطالة والكبرياء ؛ لأنه لا يفسط المصرى إلا حيث تخذله نفسه ، ولا يجد من مضاء العزيمة ، وعزة النفس مايدفع به عادية الطامعين ؟ . . .

ونتيجة هذا أن أصبح الشبان يرون أن سلاح العلم والفضل والنبل والشهامة ، سلاح مفلول ، وأن الزاد الأنفع هو التملق والمداهنة والرياء . . . »

ونجد فى « كتاب البدائع » مقالا بعنوان « خطر يهدد الثقافة المصرية » تتجلى فيه غيرته على الثقافة المصرية ودفاعه عن اللغة العربية ، وهجومه على الحكومة التى منحت « شهادات كلية فكتوريا » نفس الامتيازات التى تتمتع بها الشهادات المصرية ، وعلق على الموضوع قائلا :

... « ستوجه فى الغد القريب جدا سفراء الدول الأجنبية ؛ ليطلبوا لمدارسهم نفس الحقوق التى أعطيت « لكلية فكتوريا » . ويومئذ تقف الحكومة المصرية بين نارين : نار الرفض ونار القبول ، فأن رفضت كان معنى ذلك أنها حكومة متجلزة تختص الانجليز بالطيبات صدقا أو رياء ، وإن قبلت كان معنى ذلك أنها تصوب السهم طائشة إلى الثقة المصرية » .

وهكذا يمضى فى نقد هذا القرار مثبتا خطأه وبطلانه ، مطالبا الحكومة باتخاذ خطوات جريئة لإيقاف هذا التصرف الشاذ عند حده وحماية اللغة العربية من ألاعيب الأجانب فى « مصر » ، ومن كلامه فى ذلك :

« فعلى الحكومة أن تشترط احترام اللغة العربية فى تلك المدارس ، فيكون لها برنامج مماثل للبرامج المصرية ، وعليها أن تفرض أن يدرس التاريخ والجغرافيا وما يماثلهما من أنواع الثقافة باللغة العربية ، فأن لم تفعل الحكومة ـ وأخشى أن تجبن ـ فستكون النتيجة قبر الثقافة المصرية وأن يكون شباب المستقبل موزعين فى أهوائهم ومشاربهم وطبائعهم بين « متلجنز » و « متفرنس » إلى آخر ما سترمينا به الأقدار من نكبات الاحتلال » .

وفى مصر احتفال تقليدى اسمه « وفاء النيل » ويقام هذا الاحتفال عندما يفيض « النيل » ، وتنفق الحكومة على هذا الاحتفال مبالغ كبيرة . والاحتفال بوفاء النيل عادة قديمة لدى المصريين ، وقد كان القدماء منهم

فى عهد « الفراعين » يقدمون فى الاحتفال غادة جميلة تلقى فى النيل تقربا إليه .

« ويحضر هذا الاحتفال — كما يقول « زكى مبارك » — رئيس المحكمة الشرعية لتلاوة « الحجة الشرعية » ثم تطلق السهام النارية فى الفضاء إلى منتصف الليل ، أمور أعجب من العجب فالنيل يهدد البلاد بالدمار ، ومع ذلك يقام له احتفال تنفق فيه الحكومة ألوف الدنانير » .

ويقول فى ذلك نظما :

أنهر يأكل الخيرات أكلا	يقوم لمدحه ليلا خطيب
وقاضى الشرع يحضر فى يديه	كتاب خطه خط غريب
خرافات سخيفات وعهد	من الأوهام مرتعه خصيب

وعندما كان فى العراق تلقى خطابا من « كلية الآداب » بالجامعة المصرية جاء فيه « أن « دار الكتب المصرية » قررت منح هدايا لأوائل الناجحين فى الدراسات النهائية للجامعة المصرية ، وترجو من الطالب إفادتها عن اسم وعنوان من يوكله بمصر فى استلام الكتب الموضحة فى الخطاب . . . »

وكانت الهدية نسخة من ديوان « مهيار » ونسخة من ديوان آخر ويعلق على هذه الهدية قائلا :

« ولكم أن تتصوروا مبلغ فرحى بهذه الجائزة حين تعرفون أن لى أبحاثا عن أشعار هذين الشاعرين ، عرفها قراء مؤلفاتى منذ أكثر من عشرين سنة . فلم يبق إلا أن يمنحونى نسخة من كتاب « القراءة الرشيدة »

وهذه الصراحة جعلته مضرب الأمثال، وقد حياه الأستاذ «محمد عبد الغنى حسن» بقصيدة قيمة بمناسبة ظهور كتابه عن «عبقرية الشريف»، جاء فيها:

وعرفت فيك من الصراحة موضعا   حظ المنافق منه كان جديبا
ترمى بألسنة المقـال كأنما   ترمى شواظا أو تصيب لهيبا
زعموك فى تلك الصراحة مخطئا   وأراك فيها يا «زكى» مصيبا
ما النقـد والإصلاح إلا جرأة   فيم الشجاعة لو تكون هيوبا؟..

فخر وثناء

إن « زكي مبارك » نسيج وحده بين أدباء العرب المحدثين ، له أسلوب خاص فى الكتابة ، ومن أهم مميزات ذلك الأسلوب ، الثناء على نفسه ، ولا يخلو مقال من مقالاته من الثناء ، ولا يهاجم أديبا إلا فضل نفسه عليه ، حتى أصبح معروفا عند جميع القراء أن « زكي مبارك » كثير الثناء على نفسه . حتى رأينا من يقول : إنه لا يقرأ كتبه بسبب هـذا الثناء والإعلان عن نفسه ، وهذا لاشك قول فيه مبالغة وتسرع ؛ لأن الإنسان الذى يريد أن يكون رأيا عن أديب من الأدباء ، يجب أن يقرأ كتبه ليرى ما عنده من بضاعة ، وبعد ذلك له مطلق الحرية فى الحكم له أو عليه . أما أن ينصرف عن هذا الأديب لأنه سمع شيئا عنه ؛ ـ فذلك مالا يتفق والروح الأدبية ، التى يجب أن يتحلى بها كل شاب مثقف ، رائده البحث العلمى الصحيح .

« وزكي مبارك » لم يثن على نفسه إلا صادقا ، أى أنه لم يثن على نفسه اعتباطا ، وإنما يقرر حقيقة واقعة . والأدباء الذين تصدى لهم بالنقد كانوا يعترفون له بالاطلاع والفهم العميق ، وكان القراء يرون فى الثناء فتحا جديدا فى ميدان الأدب لم يسبقه إليه سابق . من ذلك أن « الأستاذ محمود غنيم » نشر فى « الرسالة » مقالا موجها إليه يقول فيه :

« . . . . فاجعل لنا يوما من تمسك على صفحات « الرسالة » تحدثنا فيه بالصراحة التى تعدها من أهم مقوماتك ، عن « زكى مبارك » ، كما يعرفه «زكى مبارك» شارحا لنا وجهتك فى الحياة الأدبية التى تعتقد أنك تعيش فيها منفردا ، فأنت أجدر من يتحدث عن نوايا النفوس . . . » .

والقراء قبل أن يبتكر « زكى مبارك » هذا الأسلوب الجديد ، كانوا يرون الشعراء يضفون على أنفسهم أوصافا هى بعيدة عنهم كل البعد . وكانوا يضعون أنفسهم موضعـــا هم براء منه — والصادقون فى مدح أنفسهم قليلون — والشواهد كثيرة بتأييد هذا القول ، ومن يتصفح دواوين الشعراء يجد مصداقا لهذا الكلام ! . . .

وعندما طلع عليهم « زكى مبارك » بأسلوبه المبتكر ، سروا به وأخذوا يجدون فيه بابا جديداً يتسم بالقوة . وجدوا أديبا لا يقول عن نفسه إلا ما يرى فيها . . . رأوه ينقد نفسه بنفسه ، ويعلن عن نفسه إن صد عنه الناقدون ، ويحلل كتبه للقراء بتلك المقدمات الطويلة ، ولا تخلو إحداها من مدح أو ثناء .

وهـذا لا يعنى أنه لم يبالغ فى الثناء على نفسه ، فى بعض الأحيان ، وبخاصة فى أيامه الأخيرة ، كما نراه واضحا فى ديوان « ألحان الخلود » ، ولكنه رغم هذا قد كان ثناؤه مقبولا لدى القراء ، وكانوا يرون فيه نمطا جديدا ، يستحق التقدير والاهتمام .

وتعترضنا فى هذا البحث مشكلة ، وهى أن الشعراء إذا مدحوا بحق أو بغير حق فليس هناك أى اعتراض عليهم ، وإذا مدح الأدباء أنفسهم — نثرا — صبت عليهم الاعتراضات ، وفى الحقيقة أن الأدب لا يفرق بين الشعر والنثر ، وجيد النثر كجيد الشعر تماما ، فما الفرق بين شاعر يكيل المدح لنفسه ، وبين أديب ثائر يثنى على نفسه بحق، بأسلوب فنى رائع ترتاح له النفس ؛ كما ترتاح للشعر الجيد ؟ . .

ما الفرق إن مدح « زكى مبارك » نفسه قائلا :

تفننت فى اغتيابى عصبة عجزت	عن درك ماناله بالعلم والأدب
قالوا غَوِىٌّ تديد الفتك منطلق	إلى المآثم مغرًى بابنة العنب
إن صح مازعموا والإفك مازعموا	فكيف ألفتُ ماأبدعت من كتب؟
سبعون جزءا كأزهار السماء بدت	كالشهب تنقض من بعد ومن كثب
فى كل قطر لها برج تحل به	وتأسر الخلق من عجم ومن عرب
إن كان فى وسعهم أن يبدعوا أدبا	يبقى على الدهر والأزمان والحقب
فليصنعوا مثل صنعى وهو فى حلل	من البدائع قد صيغت من الذهب

ما الفرق إن مدح نفسه بتلك الأبيات ، وإن مدح نفسه بهذه الكلمات من مقدمة كتاب « الأسمار والأحاديث » :

« وأنا أعتقد بلا زهو ولا كبرياء أنى وصلت باللغة العربيـة ، إلى ماكانت تطمح إليه من البيان . أنا أعتقد بلا استطالة ولا تزيد أنى خلقت

عذوبة الأسلوب فى اللغة العربية ، وقد صار البيان عندى طبيعة أصيلة لا يعتريها تـكلف ولا افتعال ، وأعرف بالتأكيد أن الذى يقرأ مؤلفاتى ومقالاتى يشعر بأنه يرى الحياة وجها لوجه ويشهد صراع الأحلام والأوهام ، والآراء والأهواء ، والحقائق والأباطيل »

قل لى يا أخى القارىء ما الفرق بين مدح الشعر ومدح النثر؟ . وهل هناك غرابة فى المثالين اللذين مرا بك منذ قليل؟ .. نعم هناك غرابة لا تخفى على اللبيب، وهى أن الأبيات فيها مبالغة على حين خلا النثر من تلك المبالغة . ومع هذا تبدو الأبيات عادية لا تلفت النظر ، فى ميزان النقد المتعارف بين الناس ، أما الثناء فى النثر فممقوت ومردود ، وإن شئنا تحرى الحقيقة ، فالنثر هنا أصدق من الشعر فى ميزان النقد الصحيح ! ...

وما رأيك يا أخى فى هذا البيت « لزكى مبارك » :

أنا الأسد الضارى الذى تعرفونه ومن صولتى يعيا الزمان فيحنق

أليس فى هـذا البيت مبالغة ؟ ... ومع ذلك لا يلتفت الناقدون إلى هذا الثناء لأن جميع الشعراء يثنون على أنفسهم . إن الشعراء يثنون على أنفسهم فلا يلفتون النظر ، حتى « زكى مبارك » الشاعر لا يقول عنه النقاد شيئا إذا قال : « ومن صولتى يعيا الزمان فيحنق » ولكنهم يـكيلون له اللوم ، ويعيّرونه بالثناء على نفسه إن قال مخاطبـا القارىء :

وأنت مع ذلك تعرف أنى وقفت لأعداء العروبة والإسلام بالمرصاد، فرقت أوهام الخوارج على العروبة والإسلام شر ممزق . ودحرت من سولت لهم أنفسهم أن يتطاولوا على ماضى الأمة العربية، وكنت دليلك فى التعرف إلى مآثر العرب المشرقين والمغربين وعاديت من أجل الحق رجالا يضرون وينفعون، ويقدمون ويؤخرون، فكان اعتصامى بحبل الحق هو أقوى ماتدرعت به لاتقاء مكايد الناس ومكاره الزمان».

ومثال ثالث، يقول «زكى مبارك» عن الشعر فى مصر :

قالوا ذوى الشعر فى مصر فقلت لهم	إنى سأجعله من بعض خلانى
ما ضاع من أنا راعيه وكالئـــه	بحارس أخضر العينين يقظان
سأوقد الشعر فى الوادى وأعلنه	إن كان فى حاجة يوما لإعلان

فجعل نفسه راعى الشعر وكالئه، وأنه هو الذى سيوقد الشعر فى مصر بعد أن صوح روضه، ويمر قارىء هذه الأبيات عليها، فلا تلفت نظره — إلا بمقدار مايلفت نظره أى شاعر آخر، ولكن القارىء يقف موقفا مغايرا عندما يقرأ هذه الكلمات «لزكى مبارك» نفسه عن الشعر أيضا:

«أما بعد فأنا أرفع الراية الشعرية بقوة هى أخطر وأقل مما أطاق أكابر الشعراء فى اللغة العربية، فليزاحمّنى من يريد إن كان يطيق، وهيهات ثم هيهات !....»

وفى الواقع أن كلمته النثرية تشبه تلك الأبيات فى الفخر، ولكن

الناس ينظرون إلى نثر النثر بمنظار آخر، ولو استقامت الموازين لما رأينا فرقا بين نثر النثر ونثر الشعر، لأن الأدب الرفيع يسمو على كل اعتبار.

وأورد «زكى مبارك» فى هذا المعنى رأيا فى كتابه «النثر الفنى» ردا على قول «أبى هلال العسكرى»:

«ومن صفات الشعر التى يختص بها دون غيره أن الإنسان إذا أراد مديح نفسه فأنشأ رسالة فى ذلك، أو عمل خطبة فيه جاء غاية القباحة، وإن عمل فى ذلك أبياتا من الشعر احتمل».

ورد «زكى مبارك» على هذا الكلام هو:

«وهذا كلام يحتمل النقض، فأن مدح الرجل نفسه، وإن جرى مجرى الدفاع والمناصرة، صح وقوعه فى النثر، وشواهد ذلك كثيرة من خطب الخلفاء والولاة ورسائلهم فليست خطب «على بن أبى طالب» فى جملتها إلا إشادة بشرفه وتنويها بقربه من الرسول... أما الفخر الذى يجرى مجرى الزهو والخيلاء فهو مردود فى الشعر والنثر».

«ولزكى مبارك» مقال بعنوان «كيف أثنيت على نفسى» موجها إلى صاحب «جريدة الدستور» ردا على مقال الأستاذ «عبد الله حبيب» الذى مر ذكره، ومما جاء فى ذلك المقال:

«أخى وصديق: أتحداكم أن تثبتوا أنى أثنيت على نفسى بغير الحق أتحداكم أن تثبتوا أنى كنت كاذبا فيما ادعيت من الفضل. أتحداكم أن

تثبتوا أنى لم أكن أهلا لثقتكم يوم كرمتمونى بفضل ما أبدعت فى التأليف...
أتحداكم أن تثبتوا أنه مر يوم واحد بدون أن أخلو إلى قلمى وكتابى بصنع ساعات
أسألوا بواخر المحيط تحدثكم أنى كتبت فوق متونها فصولا من كتاب «النثر الفنى» : اسألوا الصحراء الشامية تحدثكم أنى كتبت فصولا جيدة وأنا أعانى عذاب السفر بين «دمشق» و«بغداد» . اسألوا صحف «مصر» و«الشام» و«العراق» ، تحدثكم بأنى وصلت إلى جميع الأسماع فى الأقطار العربية آه .. ثم ... آه ... من الابتلاء بالجحود ! ... أمثلى يضطر إلى أن يقهر الناس على الاعتراف بأنه لم يثن على نفسه إلا لأنه يحس نقمة الابتلاء بالعقوق ؟ ... »

أرأيت يا أخى القارىء كيف يعرض هذا الموضوع بمزيد من القوة والصدق ؟ ... أرأيت كيف يصوغ العبارات بشرفى ترتاح إليه النفس ؟ ...

وقد عالج «الأستاذ الزيات» هذه المسألة فقال :

«ومن أثر ذلك كان هذا الإعلان المستمر عن نفسه وعن عمله ، وهى صفة لا تتفق كثيرا مع وقار العلم وجلال الخلق ، ولكنها آتية إليه من وراء الوعى ، على ظن أن الناس ينكرون عليه فضله ، وينفسون عليه مكانه . ولكن هذه الأعراض النفسية ستفنى فيه وفى الناس ، ويبقى ذلك المجهود العلمى الضخم الذى قدمه إلى الأدب العربى فى شتى مناحيه ، شاهدا على صدق خدمته للأدب ورفيع مكانته فى النهضة ... » .

فى سبيل اللغة العربية

مر بنا فى فصل سابق موقف « زكى مبارك » حيال حادث « كلية الحقوق » ببغداد ، وكيف استطاع هذا الأديب بما أوتى من قوة وحزم ، أن يقطع دابر الفتنة التى كادت تشتعل بين بلدين عربيين شقيقين هما : « مصر » و « العراق » . وكيف استطاع أن يقهر الصحفيين الذين تصدوا لزيادة شقة الخلاف ، فترك فى نفوس القراء العرب أطيب الأثر ، واستطاع أن يبرهن أن الأديب المخلص يستطيع أن يكون خير سفير لبلاده ، ويستطيع أن يخلد مجداً لوطنه بينما يعجز عن ذلك أمهر السياسيين .

والحديث عن العرب يدفعنا إلى الحديث عن لغة العرب، وكان « زكى مبارك » فتاها المقدم وفارسها المجلّى ، وقد كانت له مواقف محمودة المدافع عن اللغة العربية ، والسعى لرفع مستواها بين لغات العالم ، ومن كلماته فى هذا الموضوع :

« . . . : فأن اللغة العربية ظفرت فى ماضيها بما لم تظفر به لغة من اللغات الحية، فقد دخلت إليها العبقريات من كل جنس عن طريق الإسلام، وكان لها من الحظ مالم تحظ بمثله الفرنسية أو الإنجليزية فى العصر الحديث ، وذلك أن الفرنسية والإنجليزية على حظهما من الرواج لم

يكتب بهما من الأجانب إلا عدد ضئيل جدا ، أما اللغة العربية فتغلغلت في أقطار كثيرة أجنبية ثم حولت أولئك الأجانب عنها بفضل الإسلام إلى جنود مخلصين يكتبون بها ويؤلفون ويصنفون ، فكان من ذلك أن ظفرت اللغة العربية بكنوز غنية من عبقريات الأمم المختلفة » .

أما الآداب العربية القديمة الزاهرة فقد كان « زكى مبارك » من أشد مناصريها ، وقد قامت مناظرة في الجامعة المصرية بين الأستاذ « خليل مطران » والدكتور « محمد حسين هيكل » وكان موضوعها : « هل يكفي الأدب العربي لتكوين الأديب؟ فكان رأى الأستاذ هيكل أن الأدب العربي لا يكفي وحده لثقافة الأديب ، بينما رأى الأستاذ مطران « أنه يكفي » وقد كان الدكتور « طه حسين » مناصرا « لهيكل » ، أما « زكى مبارك » فقد وقف في صف « مطران » معلنا أن الشاب يستطيع أن يكون أديبا ، دون أن يلم بالآداب الأجنبية وحجته في ذلك : « أن الدكتور « طه حسين » والدكتور « هيكل » أديبان قبل أن يعرفا شيئا من اللغات الأجنبية » .

وفي مصر كاتب كبير لا يهتم كثيرا بالأدب العربي القديم ، وقد كانت بينهما خصومة أدبية ، وكان رده على ذلك الكاتب : أنه يهتم بالأدب الفرعوني وهو أقدم من الأدب العربي فما الذي يجوز له أن يهتم بالآداب الفرعونية الموغلة في القدم ، بينما يأخذ على غيره اهتمامه بالأدب العربي ، ويقول في ذلك :

« فكيف يلام رجل مثلى إذا قصر عمره على درس الأدب العربى مع أنه أدب حى لا يزال يسيطر على أذواق الناس فى المشرق والمغرب ، وهو فوق ذلك يفسر غوامض النفس العربية التى تلقت الإسلام ، ونشرته فى العالمين . . . » .

وفى هذه الأيام دعوة لترك الأدب العربى القديم ، وهذه الدعوة يحمل لواءها بعض أدباء الشباب فى البلاد العربية ، وهذه الدعوة فيها شىء كثير من المبالغة ، وقد رأينا من لا يعترف بالشعر القديم ، ويفضل عليه كلاما يسميه شعراً ، وهو ليس من الشعر فى شىء ، وإنما هو كلام غريب ومسخ مشوه من عدة آداب ، يعافه الطبع العربى .

والأدب العربى القديم يجب الاعتناء به ، لأنه هو الذى حفظ اللغة العربية بعد القرآن ، وهو الذى جعل للعرب مقام صدق بين الآداب العالمية فى القديم والحديث . والتنكر له بدعة أجنبية ، بل مؤامرة خطرة لهدم الأدب العربى ، وطمس البنان العربى المشرق ، ويقول « زكى مبارك » :

« إن الأدب القديم لن يظفر بالحياة إلا إن وجدت له هيئة حكومية تسترخص فى سبيله الآلاف المؤلفة من الدنانير ، وتفرضه على الطلبة والأساتذة أيضاً ، إلى أن يخلق الذوق الأدبى الذى يحبب إلى الأفراد قيمة التضحية فى هذه السبيل . . . » .

ومما يؤسف له أن نجد الكتب الأدبية تنشر هذه الأيام بصورة

مشوهة ، ورائد ناشريها الربح المادى ... وبذلك يسيئون إلى الأدب العربي القديم أسوأ الإساءة . أما « مصر » فبالرغم من اهتمامها بنشر روائع الأدب العربي القديم إلا أن هذه الحركة تطلب المزيد من الجهود ، لإظهار الكتب الراقية فى حلل قشيبة ترضى الأوساط المهتمة بالأدب والثقافة .

فأين الهيئة الحكومية التى تسترخص فى سبيل الأدب الألوف المؤلفة من الدنانير ؟ . . . أين الهيئة الحكوميه التى تسهم ببعث الأدب العربى القديم من جديد ، فتكون بذلك سباقة إلى المكرمات ؟ . . .

أين الهيئة الحكومية التى تشجع أبناءها على الاهتمام بالأدب العربى القديم ، ونشره فى الأوساط الأدبية ؟ . . . أين الهيئة الحكومية التى سيخلدها الأدب العربى على مر الزمن وكل العصور ؟ . . .

أين الهيئة الحكومية التى ستحظى بهذه المنزلة القيمة وتسجل لنفسها مجدا ، سيبقى ما بقى الليل والنهار ؟ . . .

نأمل أن تكون هذه الهيئة الحكومية هى « حكومة الكويت » . .

أجل نأمل أن تكون حكومة الكويت سبّاقة إلى الفضل ، تواقة إلى المجد ! . . . إن العالم العربى ينتظر من « الكويت» أعمالا جليلة لخدمة العرب والعروبة . . وهل هناك أجل وأسمى من نشر روائع الأدب العربى ؟ . . . هل هناك عز يعلو عن الأدب والعلم ؟ . . .

إن المال متوفر — والحمد لله على نعمائه — فلماذا لا تستغل

الحكومة هذه الفرصة الذهبية فتفوز بالمجـــد المؤثل ، بنشر المخطوطات العربية الموجودة فى مكتبات العالم المختلفة ، فى الشرق والغرب .

قد يبدو المشروع صعبا أول وهلة ، ولكنه يسهل عندما تتضافر الجهود ، ويستعان بالأكفاء من أدباء العرب فى شتى البلاد العربية ، فلا تنقضى سنوات حتى نكون قد نشرنا أطيب ذخيرة فى عالم الفكر ، ويكون مجد « الكويت » فوق كل مجـــد ، وتفوز « الكويت » بقصب السبق ، ويكون للكويت دوى على هائل فى العالم أجمع .

فما رأى حكومة الكويت فى هذا الاقتراح ؟ ... ما رأى المسئولين فى هذا المشروع الأدبى المثمر ؟ ... ما رأى أولياء الأمور بالكويت فى هذه الخطوة العلمية المباركة التى ستسعد أبناء « الكويت » ، وتسعد أحفادهم على مر العصور ؟

طموح وعمل متواصل

رأينا كيف عمل «زكي مبارك» المستحيل، للوصول إلى الهدف الذي كان يطمح إليه، وهو أن يكون في طليعة الكتاب العرب في العصر الحديث ورأينا كيف أثار في الأوساط الأدبية دويا هائلا، ما زال صداه يتردد في ميادين الأدب والنقد. ورأينا كيف دوخ الأدباء المعاصرين وأقض مضاجعهم، فانفض من حوله أكثرهم، وقطعوا ما بينه وبينهم من صلات الود والصفاء، بسبب نقده القوي، وهجومه الخاطف، على مؤلفاتهم وآثارهم الأدبية.

وكان إلى جانب هذا المجد الأدبي يطمح في مجد آخر ويسعى إلى هدف غير الهدف الذي بلغه، كان يهدف إلى بلوغ منصب من المناصب العالية في «وزارة المعارف»، كان يريد أن يكون عميدا لإحدى كليات الجامعة المصرية أو مفتشا عاما في الوزارة. ولكن المسئولين ضنوا عليه بما يريد، وحالوا بينه وبين ما يطمح إليه. وكان يحز في نفسه أن يرى من هم دونه مرتبة وعلما، يتقدمون عليه ويحتلون هذه المناصب، وكان يسخر من المسئولين على هذا التصرف الخاطيء.

ولم يكن المسئولون يجهلون مكانته العلمية، واطلاعه الواسع، وقوته في مادته واختصاصه، وكانوا يشيدون دائما بمقدرته ومنزلته الأدبية،

وفيهم من قدموا له بعض كتبه ، وأثنوا عليه ثناء عاطرا ، حتى أن الدكتور « طه حسين » أستاذه وزميله وصديقه أثنى عليه وعلى كتابه « حب بن أبي ربيعة » عاطر الثناء ، ومع هذا فصله من التدريس بالجامعة كما مر بنا .

والسبب فى وقوف المسئولين فى الوزارة منه هذا الموقف هو أنه كان ثائرا ، ثورة جامحة ، على آثارهم الأدبية — ومنهم الدكتور « طه حسين » — وكان يشن عليهم الحملات بدون هوادة ، وكان يتعمد نقد أساتذته المسئولين فى الوزارة ولا يبالى بما تأتى به الأيام ، ولا يهتم بالنتائج والعواقب ، حتى أصبح أكثر المسئولين خصوما له ، ويقول فى ذلك :

« وهؤلاء الخصوم يعرفون فى سرائرهم أنى من أهل الصدق ، ولكن الخصومة لها طبائع سود ، وهى تحرف الكلم عن مواضعه ، بلا تهيب ولا استحياء . . . . »

وهناك سبب آخر يحجم بالمسئولين عن إعطائه أحد المناصب العالية فى الجامعة ، وهو أسلوبه العاطفى الذى سارت بذكره الصحافة العربية أيما مسير . . . كانوا يرون أنه من غير اللائق أن يتغنى بالحب والجمال أستاذ كبير فى الجامعة وأديب شهير يوجه الحركة الأدبية .

ولو كان هذا الأديب فى الغرب ربما تساهل معه المسئولون ؛ لأن

التغنى بالحب والجمال من بميزات الشعراء ، و «زكى مبارك» شاعر قبل أن يؤلف الكتب الضخمة ، فى الأدب والفلسفة. ولكن البيئات المحافظة فى الشرق لم تألف هذا الأسلوب المبتكر الذى جاء به هذا الأديب ، فكان إبعاده عن الجامعة ، وتحاشى تعيينه فى مناصبها العالية ، ـ نتيجة لذلك الأسلوب الغريب .

وعندما وجد المسئولين يضنون عليه بما يريد أخذ يهاجمهم فى الصحف والمجلات ، متهما إياهم بالجهل وسوء التدبير ، وعدم القدرة على تصريف الأمور . فكان بعضهم يتحاشى الاصطدام به فيسكت ، وكان بعضهم يحاسبه حسابا عسيرا فيه قسوة وانتقام ! . .

وقد تعرض للفصل من وظيفته بالتفتيش.هكذا نجده قد وفق فى الأولى وأخفق فى الثانية . وفق فى أن يكون أديبا كبيرا فى الرعيل الأول من أدباء العرب المعاصرين ، وأخفق فى أن يكون عميدا لإحــدى كليات الجامعة المصرية أو مفتشا عاما بوزارة المعارف ! . .

ومن علامات طموحه أنه كان يحفظ آلاف الأبيات من الشعر ، وعندما كان الدكتور « طه حسين » يلقى إحدى محاضراته فى الجامعة المصرية صرح بأن « أساتذة الأدب فى مصر ليس فيهم من قرأ دواوين من الشعر العربى قراءة صحيحه » فرد عليه « زكى مبارك » قائلا :

استثنى يا دكتور — الله يهديك — لأنى أحفظ عن ظهر قلب

ثلاثين ألف بيت من الشعر ، وأستطيع إنشادها بعد مراجعة صغيرة » .

فأجاب الدكتور « طه حسين » : « أنا أقصد أساتذة الجامعة » .

وقد سأله بعض أصدقائه عن المكان الذى يسهر فيه ، ويقصدون المكان الذى يقضى فيه أوقات الفراغ ، وقد فاتهم أن هذا الأديب المدرب يتورع عن السهر فى القهوات الموبوءة التى تنهب وقت الأديب ، ولا تنيله غير الحسرة والندامة . كانوا يتصورون أنه سيجيبهم بأنه يسهر فى القهوات . حيث يسهر فيها الشباب الذين لا يقيمون وزنا للوقت ، ويضيقون به ولا يدرون كيف يتصرفون به ، وكيف يقصونه فيكونون عيالا على المجتمع .

كانوا يتصورون أنه سيدعوهم إلى قهوة يقضون فيها الوقت ، بين سمر رخيص ولهو خاسر ، ونكات بذيئة ، يضيق بها الكريم ويعافها الأحرار من الشباب ، ولكنه رد عليهم قائلا :

« أين أسهر ؟؟ . . أنا أسهر فى بيتى حيث آنس بوحشة الليل ، فقد ضجرت من إخوان الزمان ، وعادت الوحدة أحب إلى نفسى من صحبة من يلبسون ثوبا للمحضر وثوبا للمغيب . . »

بهذه العبارة القوية يجيب سائليه عن مكان سهره ، وهذا جواب كل شخص حر ، يترفع عن صغائر الأمور ، ويعاف السّهر فى القهوات الموبوءة .

إن الشـــاب المصرى يجب أن يستغل كل دقيقة من دقائق حياته ليفيد منها ، ويفيد المجتمع وهل هناك مكان يفيد منه المرء فى السهر غير بيته ، حين يأنس بوحشة الليـــــل كما يقول « زكى مبارك » ، وكما يقول المنطق الصحيح ؟ . . .

لقد كانت حياته كفاحا متواصلا فى سبيل الأدب والعلم وكان يحبس نفسه فى غرفته عـدة أيام ـ لـكى يستطيع النجاح فى مهمته الأدبية . وقد كان غذاؤه غـذاء بسيطا ، وكان منقوع الشاى هو الأثير لديه فى تلك الفترات العصبية . وعندما كان فى « بغداد » كان يـكتب فى الأسبوع تسعين صفحة ويعمل أكثر من خمس عشرة ساعة ؛ فاستطاع أن يؤلف ، خلال تسعة أشهر ، سبعة مجلدات إلى جانب واجباته فى « دار المعلمين العالية » .

وهل كانت حياته منـذ بدئها إلا نضالا مستمرا فى سبيل العلم ؟ . . . وهل كانت خصوماته الأدبية إلا دليلا على طموحه وعمله المتواصل ، وكفاحه فى سبيل الدرجات العلمية ؟ . أليس برهانا على صبره العظيم على مكاره السهر ومضايقات البحث العلمى ، والانصراف عن شئون الحياة الأخرى ؟ . . .

إن حياته كانت موزعة بين التدريس والنقد والبحث العلمى ، لقد أكره نفسه على العمل المتواصل حتى أثبت بطلان آراء المستشرقين فى

الأدب العربي القديم . وصحح كثيرا من المفاهيم الخاطئة التي كانت متعارفة بين الناس . وقد قضى فترة طويلة في قراءة كتاب « الأم » للإمام « الشافعي » ، فاتضح له أنه ليس من تأليف « الشافعي » وإنما هو من تأليف « البويطي » وقد تصرف فيه « الربيع بن سليمان » ، وقد نشر هذا الرأي في كتاب اسمه « تحقيق نسب كتاب الأم » .

وكتبه التي أربت على الثلاثين مجلدا شهادة صادقة على عمله المتواصل وطموحه العظيم . وأكثر هذه الكتب كتب علمية ، تستند على التحقيق العلمي الدقيق ، فقـــد ألف « النثر الفني » في سبع سنوات ، وألف « التصوف الإسلامي » في تسع سنوات . ومعنى هذا أنه استطاع أن يقهر النفس على الصبر الطويل ، والعمل الشاق سنوات طويلة ، في تأليف كتابين هما من خير كتبه ، ومن المعروف أن الكاتب إذا مل من كتابة البحث لم يرجع له ثانية ويتناول موضوعا آخر ، إلا إذا كان هذا الكاتب جبل على الصبر والكفاح العلمي الشاق

ومن أعماله الأدبية التي تذكر فتشكر ، واستفاد منها آلاف من طلاب التوجيهية في مصر بصفة خاصة ، وآلاف من طلاب الأدب بصفة عامة ، هي الأبحاث التحليلية التي عرضها في « مجـــلة الرسالة » ، وقد كانت وزارة المعارف تقرر هذه الكتب على طلاب التوجيهية ثم تعقد لهم مسابقة ، والطلاب المبرزون في معرفة محتويات هذه الكتب ، تمنحهم الوزارة جوائز

تشجيعا لهم على البحث والقراءة المفيدة :

وكانت طريقته فى عرض الكتاب طريقة شائقة تمهد للطلبة قراءة الكتاب بشوق ورغبة . كان يذكر نبذة من المؤلف لكى يعرف الطالب مكانته الأدبية فى المجتمع ثم يعرض فصول الكتاب ، والنقاط المهمة التى يجب أن يفيد منها الطالب ، وقد صرح كثير من الطلبة بأن تلك الأبحاث كانت تساعدهم على الفوز فى المسابقة .

وأهم تلك الكتب التى عرضها وحللها فى «مجلة الرسالة» هى : «حديث عيسى بن هشام للمويلحى» ، «والمختار للبشرى» ، «ومطالعات فى الكتب للعقاد» ، «وابراهيم الكاتب للمازنى» ، «والشوقيات» ، «وديوان صبرى» «وديوان حافظ» ، «وفيض الخاطر لأحمد أمين» ، «وتحرير المرأة لقاسم أمين» ، «والأيام لطه حسين» ، و«وحى الرسالة للزيات» ، و«نداء المجهول لمحمود تيمور» ، و«معرض الآراء الحديثة ترجمة محمد رفعت» ، و«ديوان البارودى» ، و«الأجنحة المتكسرة لجبران» ، و«ديوان البهاء زهير» ، و«ديوان علم الدين المحيـــوى» ، و«أخبار أبى تمام للصولى» ، و«فى صحراء ليبيا لأحمد حسنين» ، و«أهل الكهف لتوفيق الحكيم» ، «والمنتجات للطفى السيد» ، و«الأخلاق عند الغزالى لزكى مبارك» .

وما زالت طائفة كبيرة من آثاره موزعة فى الصحف والمجلات ، وهى تكون مجموعات أدبية طريفة جديرة بالقراءة والاطلاع ولست أدرى

متى تجمع هذه الآثار الأدبية ؛ لكى تحفظ من الضياع ، ويستفيد منها القراء فى شتى ديار العرب ، كما استفادوا من كتبه التى صدرت فى حياته ، وكانت لبنات صالحات فى كيان النهضة الأدبية الحديثة .

ومن موضوعاته الممتعة «الحديث ذو شجون » . لقد أبدع « زكى مبارك » فى هذه الموضوعات وأطرب . . . لقد كانت هذه الموضوعات كالواحة الغناء ، وفيها أخبار أدبية ، وفيها تعقيبات مبهجة . وفيها نقد يقسو ويلين ، حسب إرادة هذا الناقد الثائر وفيها خاطرات عاطفية ترتاح النفس لقراءتها وفيها شىء كثير من الطرافة والبيان المشرق . كانت إحدى هذه الخاطرات تصل أحيانا إلى صفحات من المجلة ، وكانت أحيانا لا تتجاوز بضعة سطور وقد كان القلم ينبو أحيانا فيسطر خاطرات تخالف أخواتها فى الجودة والإتقان والإبداع ، ولكنها من القلة بحيث تتوايل أمام الفيض الزاخر من النفحات الصادقات .

وإلى جانب التأليف اشترك فى شرح وتحقيق الكتب الأدبية ؛ فقد شرح وحقق كتاب « زهر الآداب » فى أربعــــة أجزاء ، وشرح وحقق الجزء الأول من كتاب « الكامل » للمبرد ، وملزمتين من الجزء الثانى ، وأكمل الشرح الأستاذ أحمد محمد شاكر . وشرح كتاب « الرسالة العذراء » ومع الشرح بحث مفصل باللغة الفرنسية عن فن الإنشاء فى القرن الثالث الهجــــرى .

كلمة فى الأسلوب

«لزكى مبارك» أسلوب فريد فى الكتابة ، له ديباجة مشرقة ، وتعبير وضاح . وكل من يقرأ كتبه يدين هذه الحقيقة ، وقد كان هذا الأسلوب أهم عامل فى إقبال القراء على كتاباته ، ذلك الإقبال العظيم ، ومقالاته التى كان ينشرها فى الرسالة بأمضاء مستعار كانت تدل عليه ، وكان القراء يتعرفون على روحه الوثابة بين السطور .

اكتسب «زكى مبارك» هذا الأسلوب من عدة مصادر ، الأول : تمكنه من قواعد اللغة العربية تمكنا قويا بفضل السنوات التى قضاها فى «الأزهر» ، ومما لا ريب فيه أن قوة الكاتب فى اللغة ضرورية لثقافته ، وبدونها لا يستطيع أن يجارى حملة الأقلام ، ويتمكن بواسطتها أن يسمو بأسلوبه عن الإسفاف والابتذال والركاكة ، التى نجدها فى أساليب الكتاب الثائرين على اللغة العربية ، والذين يحاولون التخلص من قواعدها

وأروى هنا بهذه المناسبة مثالين اثنين حول تمكن الكاتب من اللغة العربية وقواعدها وبالعكس . المثال الأول: قرأته فى «مجلة الرسالة» منذ أكثر من عشر سنوات ، فقد نشر أحد الكتاب مقالا ، فعقبت «المجلة» بما معناه : لو أن حظ الكاتب من اللغة العربية وقواعدها كان موفوراً

فتجنب كثيراً من مواقع الزلل التي وقع فيها، ولكان مقاله ناجحاً كل النجاح

والمثال الثاني قرأته منذ سنة في مجلة أدبية تصدر في القاهرة، فقد أرسل أحد الكتاب مقالا للنشر فكان تعقيب المجلة بما معناه : أن تمكن الكاتب من اللغة العربية وقواعدها جعل المقال يخسر كثيراً من فائدته الأدبية .

فواعجبا من صنع الأيام ! . . . كان رؤساء التحرير في السابق يحثون القراء على المزيد من الاطلاع في اللغة وقواعدها، فأصبحوا في هذه الأيام يحثونهم على التحلل من اللغة وقواعدها ! . . .

ومهما يكن الأمر فإن قوة الكاتب في اللغة وقواعدها ضرورية جداً، وقد ذكر هذا المعنى الدكتور «طه حسين» في أحد كتبه الحديثة وهو كتاب «خصام ونقد» .

والمصدر الثاني في تكوين أسلوب «زكي مبارك» حفظه القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وآلاف الأبيات من الشعر العربي .

أما اقتباس الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، فهو كثير جداً في مؤلفاته ومقالاته، وهو يجيد الاقتباس إجادة عظيمة، وقد أصبح مضرب المثل بين القراء بحسن اختياره لمواقع الآيات التي يستعملها في كلامه . وأما حفظه الشعر فقد جعله متمكنا من صوغ التعبيرات الجميلة التي لا تخونه أثناء الكتابة، وأصبحت أداة طيعة على سنان قلمه . وقراءه

يستشهد كثيراً بالشعر ، ويراه يضفى على تلك التعبيرات مسحة من الجمال فتظهر أبدع مما كانت .

ويهتم « زكى مبارك » بالشعر الجزل ذى النغمة الموسيقية وقد رأيناه كيف يوصى القارىء بقراءة دواوين « البحترى » و « الشريف » و « شوقى » ، لكى يستمتع بالديباجة الشعرية المشرقة ، واهتمامه بهذا الشعر — خاصة — جعل لأسلوبه هذه الميزة المعروفة .

والمصدر الثالث الذى ساعده على ابتكار هذا الأسلوب الجميل هو اغترافه من آداب اللغة الفرنسية فاستطاع أن يخلق عذوبة الأسلوب فى اللغة العربية نتيجة لهـــذا التمازج بين آداب اللغتين . ويقول « الزيات » عنه :

« وكان رحمه الله من المخضرمين المخلصين الذين ربطوا الجديد بالقديم ، ووصلوا الشرق بالغرب ، وكان لهـذه الطبقة الفضل العظيم على النهضة الأدبية بما وطدوا من أساس ، وأقاموا من قواعد ، وحققوا من توازن ، وبهذه الميزة كان للفقيد الكريم نصيب فى بناء مجد الرسالة حيناً من الدهر » .

واستطاع « زكى مبارك » أن يجعل من النثر أداة للغزل والتشبيب ، بينما كان هذا الفن مقصوراً على الشعر فقط . والتشبيب المبثوث فى كتاباته يطرب النفس كما يفعل الشعر تماماً . حتى قال « الأستاذ على الجارم » :

. . « ا . دا بتكر مز كي مبارك » فناجديدا — بن فنل الغزل و التشبيب من الشعر إلى النثر » .

« والأستاذ الجارم ، كان شاعرا مجيدا يعرف مواطن الجمال في الشعر ، وقد بهره مارأى من أسلوب « زكي مبارك » فصرح بذلك الكلام وهو يعني ما يقول .

كان أسلوب « زكي مبارك » في أول حياته الأدبية أسلوبا مسجوعا ، يعتمد على الزخرف اللغوي ، وينحو فيه منحى الأدب القديم في العصور الإسلامية الأولى ، والشواهد كثيرة في كتاب « حب ابن ربيعة » و « كتاب البدائع » ولكنه بعد أن اطلع على أساليب الكتاب المحدثين ، وبعد أن اغترف من آداب اللغة الفرنسية ، وبعد أن أخذ يطيل النظر في الآداب العالمية ؛ — اتضح له أن أسلوبه لا يتمشى مع روح العصر ، فترك النفس على سجيتها ، وأطلق لقلمه العنان . مطيعا الطبعه مستجيبا لثقافته الجديدة التي سمت بأسلوبه إلى الجودة والكمال .

وكان مفتونا في صدر شبابه بأساليب « بديع الزمان » و « الخوارزمي » و « الصابي » و « ابن العميد » وكان يحفظ عن ظهر قلب : « مقامات الحريري » و « نهج البلاغة » ، وكثيرا من آثار « ابن عباد » وغيره من أدباء الصنعة .

وقد كان معجبا بكتاب نهج البلاغة وفي هذه القطعة تقليد واضح لأسلوب « الإمام علي » قال بعنوان « الأمل الضائع » في كتاب البدائع :

«فياليت شعرى من ألوم ؟ ... أألوم نفسى على أن لم أعق فى بركم أهلى وإخوانى: فأسير حيث سرتم، وأقيم حيث أقمتم. أم ألومكم على أن تركتمونى وحيدا وآثرتم وطنكم وأهلكم، ولم تبالوا بمن خلفتموه طريح حزنه وأسير همه ؟ .. أم ألوم قوما جعلتهم منكم بدلا فكانوا شر بدل، واتخذتهم من بعدكم ذخرا فكانوا كالهباء، ورجوتهم حصنا أتقى به الدهر الخائن، والزمن الجائر، فإذا هم أذل من قراد بمنسم، وإذا المتفىء ظلهم والراجى برهم، يطمع فى غير مطمع، ويلجأ إلى شر وزر».

وهذا الأسلوب يشبه أسلوب خطب «على بن أبى طالب» فى ذم أصحابه وتوبيخهم، وهى واردة فى كتاب «نهج البلاغة» بكثرة.

وقد تنكر لهذا الأسلوب بعد ذلك بكتاباته اللاحقة، فبعد أن كان يستعمل العبارات القديمة أصبح يكتب مثل هذه الكلمات التى تسيل رقة وعذوبة، فتطرب القارىء، وتجعله أمام فن رائع:

«أنا أشرب المر من عصير الحياة: لا أحيله على لسان القلم إلى شراب سائغ للشاربين.

لو شرب الصخر من رحيق الوجود بعض ماشربت لتحول إلى أوتار قلوب، فكيف أصمت والدنيا كلها من حولى تتأرج بأريج الأزهار والرياحين ولى قلب يتشوف إلى أفنان الجمال تشوف الشمس إلى أنداء الصباح ...»

وبعد أن كان القراء يقرءون له مثل هذا الكلام:

«وما قيمة الليل إن لم تظلنى فى الحب ظلماؤه ؟ . . . وما قيمة البدر إن لم يذكرنى بالثغر لألاؤه ؟ . . . وما جمال الأغصان إن لم تهزنى إلى ضم القدود ؟ . . . وما حسن الأزهار إن لم تشوقنى إلى لثم الخدود ؟ . . .»

أصبحوا من المفتونين بأسلوبه الجديد الذى يقول فيه :

« . . . ولكن حدثونى كيف يكون شعور الروح ، روح الجندى المعروف لا المجهول ، حين يمر الناس على قبره ، فلا تلوح لهم من وجهه صورة ، ولا يعترضهم من روحه مثال ؟ . . .

كيف يكون شعور الروح ، روح القائد المغوار الذى يمر الناس على قبره ، فلا يذكرون كيف صارع النوائب وصاول الخطوب ؟ . . .

حدثونى كيف يكون شعور ذلك الروح ، وقد كان فى دنياه أرق من الزهر ، وأقسى من الزمان ؟ . . .

ولو كان ذلك الروح يعرف أن عظامه دفنت فى أرض موات لهان عليه خطب النسيان ؟ . . .

ولكنه يعرف أن عظامه دفنت فى أرض تخرج أطيب الثمرات ، وتحتال بمن يمشى فوقها من أقطاب الرجال ، كيف يكون شعور ذلك الروح فى تلك الأرض : الروح الذى اسمه « الشريف الرضى » فى الوطن الذى اسمه « العراق » .

وهناك مصدر رابع كون أسلوبه الجديد وهو استعداده الفطرى .

وقلبه النابض بالحب ، ونفسه الشاعرية التي تحس معاني الجمال . فهو يستقي أسلوبه من نبع رقراق في أعماق نفسه ، وكم في نفسه من كنوز مليئة بالأخيلة والصور ، فتظهر واضحة على سن قلمه السيال .

وهذا الأسلوب الوجداني، يتغلب أحيانا على أسلوبه العلمي في البحث والتحقيق . حتى أن أساتذته في « باريس » نبهوه إلى هـــذا المنحى في أسلوبه ، فاعتذر عنه أستاذه « ما سينيون » قائلا : « إنه شاعر والشعراء لا يستطيعون الفرار من نزواتهم . . .

ومهما يكن من شيء فأن « زكي مبارك » صاحب أسلوب في الأدب العربي الحديث ، وأسلوبه هذا جعله محبوبا من القراء ، ففيه رقة وعذوبة وسلاسة ، تشبه لغة الشعر ، وأصبح أسلوبه معروفا بين القراء بأشراقه وحسن بيانه ، ونرى أثر أسلوبه واضحا في كتابات الشباب الذين تأثروا بأدبه وطريقته في الكتابة !

وفي أيامه الأخيرة نال أسلوبه ما نال أدبه من إهمال وتفريط ، وأخذ القراء يحسون نواحي الضعف في ذلك الأسلوب ؛ لأنه كان يكتب في صحف لا تحفل بالأدب الرفيع والأسلوب الجميل ، ففقد بعض خصائص من أسلوبه الذي اشتهر به بين القراء .

حيـــاة عاطفية

تغنى « زكي مبارك » بالحب والجمال في كثير من كتبه ، وأنشأ المقالات الطوال ، في الغزل والتشبيب ، وبين مؤلفاته بضعـــة كتب خصصها لرسائل الحب وأخبار الغرام ، وذكر فيها كثيراً من خلجات النفس ونزوات الوجدان ، ومن هذه الكتب « ليـــلى المريضة في العراق » و « مدامع العشاق » و « العشاق الثلاثة » وديوان « ألحان الخلود » ، وهو يضم بين صفحاته وافراً من قصائد الحب والجمال .

فما السر في ذلك ؟ ... وهل « زكي مبارك » من العشاق المعدودين حتى يشغل وقته في أخبار الملاح ، وتصيد قصص العاشقين ، وتسطير ما في نفسه من لوعة وأنين ؟ ...

في كتابي « في الأدب والحياة » فصول عن « زكي مبارك » وقد حللت أخباره في الحب تحليلا ينأى « بزكي مبارك » عن العشق والعشاق ؛ لعلمي أنه مرب كبير ، وأستاذ قدير من أساتذة الجامعة ، وأديب مشهور من أدباء الطليعة ، فليس من المعقول أن تكون أخباره في الحب صحيحة ومعقولة ، وقلت آنذاك : إن غرامه الذي يجده القارىء منبثاً في شعره ونثره ، ماهو إلا غرام المجد ، ولا شيء غير المجد . وما « ليلى » التي يعنيها في كتبه سوى

اللغة العربية التى عشقها « زكى مبارك » فأصبح أمير العاشقين .

فهل كنت مصيبا فى قولى ؟ . . . . إن مطالعاتى فى كتبه مرة أخرى دلتنى على أن هناك سراً يكمن وراء هذه الأخبار الكثيرة عن حبه وغرامه فما هو ذلك السر ؟ . . .

ذكرنا فى الفصل الأول « سنتريس » أنه أحب فتاة صغيرة فى مثل سنه أثناء الطفولة البريئة ، فانطبع هذا الحب فى نفسه كل الانطباع ، وعندما استطاع أن ينظم الشعر أخذ يتغنى بحبها وجمالها . ولكن المنية كانت لها بالمرصاد فطواها الردى فى ريق العمر وفجر الشباب ، فرثاه بهديها ديوانه الأول بهذه العبارات المشبوبة .

« إلى تلك الفتاة التى خلق لها القلب أول خلقة : والتى قلت فيها أول قصيدة ، وسكبت عليها أول دمعة . إلى تلك الفتاة المنسية التى تنام فى قبر مجهول تحت سماء « سنتريس » . . . إلى بقاياك فى التراب يافاتحة الأمانى وخاتمـــة الآمال . إليك — ياكل ماكنت أملك فى مطالع الصبا ومفجر الشباب — أقدم هذا الديوان :

وأقسم ماقدمت إلا أضـالعى يمزقها حزنى وينثرها وجدى
فلا تحسبينى بعد أن بانك البلى تغوت ما بينى وبينك من عهد .

إذن لغرامه أساس ولحبه نصيب كبير من الصحة ، واعتقادى السليق تنقصه الحقائق الثابتة ؛ لأنه أحب قبل أن يكون أستاذاً فى الجامعة

وتغزل قبل أن يكون من المربين ، وملأ الدنيا بأحاديث الغرام قبل أن يصبح من كبار الأدباء ، وليس التغنى بالجمال مما يحط من قيمة المرء ولكن طبيعة البيئة التى عاش فيها كانت تنكر على من فى مثل مكانته العلمية أن يؤلف كتبا فى الحب وقصص المحبين . وقد وجهت إليـــه صيحات الاستنكار ، وعبارات التأنيب القاسية عند ما أخذ ينشر رسائل « مدامع العشاق » وتناولته الأقلام بالنقد والتشريح ، لتناوله موضوعات غريبة عن الجو الأدبى ، وكلها عن الحب والمحبين ، والغرام وأهل الغرام .

ولكنه لم يسكت عن الناقدين ، بل رد عليهم بهذه الكلمات :

« فى مصر قوم لا يعرفون من الجد غير الغطرسة والكبرياء ، والكاتب الجاد فى نظرهم هو الرجل السليط الذى يخيل إليه كلما كتب : أنه قسيس فى كنيسة حافلة ، أو خطيب فى مسجد جامع ، فهو مسئول عن سرد الرذائل والمنكرات ، فأما الكاتب المفتون بما أودع الله هذا العالم من روائع الحسن ، وبدائع الجمال ، فهو فى رأيهم كاتب ماجن خليع !!! ... »

ولا أدرى بماذا يجيب هؤلاء لو سألتهم : من خلق هذه الصور الجميلة التى أطارت ألباب الشعراء ؟ ... وصيرتهم فى كل واد يهيمون ؟ ... أتراهم يقولون : إنها من خلق الله ، أم من خلق الشيطان ؟ . فاذا كانت من خلق الله ، فلم ينكرون علينا أن نتغنى بصنعه البديع ؟ ... وإذ كانت

من خلق الشيطان : فلم لا يمحون الحسن من وجوه الحسان ، لأنه من عمل الشيطان الرجيم ؟ ... آمنت بالله وكفرت بمالهم من منطق مقلوب ... »

وراح يرد هجماتهم ، ويمضى فى طريقه للوصول إلى الهدف الذى رسمه لنفسه ، وهو نشر هذا النوع من الأدب بين سائر الفنون الأدبية ، بالشعر والنثر بعد أن كان ميدان الغزل والتشبيب مقصورا على الشعر .

ومما لاريب فيه أن الشعر ميدان محدود ، لا يستطيع فيه الشاعر أن يفرغ كل مافى نفسه فى القصائد والمقطوعات . وذلك للعراقيل التى يواجهها ناظم الشعر ، أما ميدان النثر فهو فسيح الجنبات ، مترامى الأطراف ، يستطيع الناثر أن يشرق ويغرب فى إظهار دقائق الحسن ومفاتن الجمال .

والنثر العادى غير مجد لهذا النوع من الأدب ، بل يجب أن يكون النثر فنيا يجارى أسلوب الشعر فى هذه الأغراض ، ولامراء أن أسلوب « زكى مبارك » فى هذا الباب كان غاية الغايات ، ومنتهى الرغبات .

وكان يرى أن الحديث عن الحب وإذاعته بجرأة وصراحة ، باب إلى المجد ، ومن يفتضح بالحب فإنه خالد مع الزمن خلود الأيام . كان هذا اعتقاده فلم يبال بصيحات الاستنكار التى وجهت إليه منذ مطلع شبابه ومضى فى سبيله ، مرفوع الرأس ، ثابت الجنان . وكان يرجع نجاح شعراء الحب والجمال فى العصور الأدبية الأولى إلى صحة قلوب وعقول أهل

ذلك العصر ، فعاش بينهم أولئك الشعراء ، تنتقل أخبارهم فى البلاد بدون أن يتعرضوا إلى اللوم والتثريب .

وفى كتابه عن العشاق الثلاثة : « كثير » ، « وجميل » ، « والعباس بن الأحنف » ذكرٌ عن حبهم وخلودهم ، ويقول فيهم :

لقد طاب لهم أن يفتضحوا بالحب ، وأن يجملوه نصيبهم من المجد ، وكان ذلك لأنهم نشأوا فى أيام كان أهلها أصحاء العقول والقلوب ، فأفصحوا عن سرائرهم بتصريح الواثق الآمن . لا بتلميح المريب الهيوب .

« والحق أن العرب فى شباب زمانهم كانوا يرون الحب قدسية ، وهذا هو السر فى التقليد الذى كان يوجب بدء القصائد بالنسيب ، وما كان ذلك التقليد إلا استجابة لدعوة روحية لا توجه إلاّ إلى أهـل الصدق ، وهى الدعوة إلى الشعور بما فى الوجود من أطايب الجمال » .

ويقصد « زكى مبارك » من هذا ، الدفاع عن طريقته فى الحب وأخبار المحبين ، والدفاع عن حبه المشبوب الذى طاب له أن يفتضح به فى كثير من كتاباته وعدد من كتبه .

إن حب « زكى مبـارك » حب صـادق غير مصطنع والأدلة على ذلك كثيرة ، وهل يستطيع أديب مهما أوتى من قوة البيان ، وإشراق الديباجة أن ينظم عشرات القصائد فى التغنى بالحب والجمال ، وهو خالى البال من

الحب ؟ . . هل يستطيع هذا الأديب أن ينفخ فى تلك الأشعار من روحه فيحيلها إلى قصيد ناطق يهز المشاعر ويستهوى الألبـــاب ؟ . . .
هل يستطيع شاعر أن يشد ويمثل هذه الأبيات وهو يصطنع الحب ؟ :

أسلمتمونى لدهرى بعد ما بليت — من قسوة الصد والتبريح أحشائى
يا ويح نفسى أتنسونى وأذكركم — مقرح الجفن فى صبح و إمساء
إن الذين بأمر الحب قد ملكوا — لم يتقوا الحب فى ضرى و إيذائى
لم يدننى الشوق يوما من منازلهم — إلا تولوا من الأيام إقصائى
كم رحت أحمل آمـالى لحبهم — وعدت أحمل آلامى وأرزائى
يالوعة القلب لاشكواى نافعة — ولا بكاى بشاف مس ضرائى
أبيت أندب عهدا مرطيبـــه — كلمحة البرق فى أعطاف ظلماء
يا من يعز علينا أن نجازيهم — صدا بصد وإغضاء بإغضاء
لو ترحمون وصلتم شيئا كلفا — ألقى جفاكم عليه ألف بأساء

هل يستطيع كاتب أن يسطر هذه الكلمات وهو بعيد عن الحب ؟ :
هوى « جميل » عند « بثينة » ، وهوى « كثير » عند « عزة » ، وهوى « العباس » عند « فوز » ، فأين هواى ؟ . . وما هو الاسم الجميل الذى أحجبه بحجاب هذا الكتمان ؟ . . . هؤلاء الموحدون فى الحب لن يكونوا أصدق منى ولن ترى الدنيا — لو تحولت إلى فردوس — عاشقا أصدق منى ، ولن أرى أكرم منك يا تلك الروح الغالية . ولا أعذب ولا ألطف ،

وإن توهمت أن الصــدود من جنود الجمال » ! . . .

هؤلاء الموحــدون فى الحب يتكلمون باسمى ، على بعد الزمان والمكان ، فأنا وأنت أول صوت يناغى ضمير الوجود .

اقرئى هذا الكتاب ، يا تلك الروح ، وتناسى أننا تلاقينا لحظة من زمان ، لتذوق طعم النوم لحظة من زمان ! . .

هذا الكتاب آخر العهد بالعتاب ، وآه ثم آه من توديع العتاب »

إذن حب « زكى مبارك » حب صادق منبعث من أعماق أعماقه ، والشواهد كثيرة ، وإن شئنا تحرى الحقيقة لقلنا إن نثره أصدق من شعره فى اللوعة والحنين ، وإن دلائل الحب الصادق تتجلى فى كتاباته الوجدانية ، أكثر مما تتجلى فى أشعاره . ومن يوازن بين شعره ونثره تتضح له هذه الحقيقة بأجلى مظاهرها .

ولكن أى نوع من الحب عاناه « زكى مبــارك » فأصبح خفاق الفؤاد ، مسهد القلب ، يصوغ قوافيه وألحانه فى الشكوى والأنين ؟ . . . أى حب هــذا الذى جعله معذبا مسهدا ، وأحاله إلى شاعر حساس يطيع قلبه أكثر مما يطيع عقله . خاصة فى أيامه الأخيرة ؟ . . أى حب هذا ؟ . . ومن هى فتاة أحلامه ؟ . . .

إن حبــه هو الحب العذرى ، هو حب خالص من شوائب الدنس والرجس ، هو حب طاهر ، شريف ، لا يعرف نزوات المــآثم ،

ولا منديات الأهواء ، كما يقول « زكى مبارك » عن حب العشاق الثــلاثة :

أما فتاة الأحلام فهى تلك الفتاة التى خفق لهـا القلب أول خفقة ، تلك الفتاة الريفية التى أحبها ، ولم ينعم بالسعادة معها ، تلك « القاة التريسية » التى غيبها الثرى ، فتحطمت آماله فى الحب ، وانهارت أحلامه فى السعادة . لقد غابت عن الدنيا ، ولكن طيفها لم يغب عنه ، لقد كان دائماً يحن إليها ، وينظم فيها القصائد ، وينشىء فيها الرسائل حتى توفاه الله .

ولقد كان يرى وجهها فى وجوه أخواتها من « بنــات حواء » ، فى النسيم إذا هب وفى القمر إذا طلع . كان يراها فى الليل إذا عسعس ، وفى النهار إذا تنفس . كان يراها فى جمال الكائنات ووراء الطبيعة كان يراها من خلال السطور أثناء بحثه وتحقيقه فى غفوات الليل ، وكان يراها ، فى قلبه وبصره ! . . .

لم تغب صورتهـا عنه طول حياته ، لذلك نراه يملأ الجو بأحاديث الحب ، وكانت له صبوات وأحلام يعجز عنها أصدق العشاق ، لقد وزع حنينه وأنينه إلى تلك الروح فى كتاباته الكثيرة ، وإن تعددت الأسماء التى يخترعها والليليات اللاتى نجد أسماءهن فى أبحاثه الكثيرة .

ويقول هو عن الشاعر العذرى .

« الشعر العذرى يخلق للمرأة شمائل تميزها عن سائر بنات حواء ،

فهو يخلق منها قوة روحية تسيطر على مسالك ضلاله ومذاهب هداه ، هو يراها أمنع من الظبية العصماء ، وقد يراها أبعد من نجم السماء .

المرأة عند الشاعر العذرى مثال رائع لا تحده الأوهام ولا الظنون ، هى جنية لبست ثياب المرأة ؛ لتخبله وتدليه بلا ترفق ولا استبقاء .

ومن المؤكد أن النـاس يعجبون من الخيال الذى يتمتع به الشعراء العذريون ، وهو فى الواقع خيال سخيف لا يرضى عنه إنسان ، فى رأسه عقـــل .

ولكن يظهر أن القلوب لها أحوال غير أحوال العقول ، وإلا فكيف جاز أن يكون العذريون الخابيل قوة أدبية وروحية . يشغل بها الناس من جيل إلى جيل ، وكيف جاز أن تنصب الموازين لخيالهم السخيف فى بيئات تنكر اللهو والمزاح » .

إن هذا الوصف الذى وصف به الشاعر العذرى ينطبق عليه تمـام الانطباق ، خاصة فى كلماته الأخيرة « وكيف جاز أن تنصب الموازين لخيالهم السخيف فى بيئات تنكر اللهو والمزاح » .

إن « زكى مبارك » واحد من أولئك الشعراء العذريين الذين كتموا الحب حينا من الدهر ثم فاضت أنفسهم بأناشيد رائعة ، فى محاريب الحب والجمال ، وأثاروا حولهم ضجة من الشكوى والحنين ، وطاب لهم أن يفضحوا أنفسهم بالحب ، ويجعلوه نصيبهم من المجد .

ولأخباره الغرامية طرائف ممتعــــة ، وقد نشر الأستاذ محمد على الطاهر ، صاحب مجلة الشباب ، عددا من الرسائل التى تلقاها بمناسبة أخبار « ليلى المريضة فى العراق » المنشورة فى « مجلة الرسالة » .

وتقول إحدى الرسائل التى تلقاها من « اليمن » :

والله عجيبة ، كيف أن حكومة « العراق » ما تحبس الدكتور « زكى ولد مبارك » الذى يعرض فى مقالاته بنسوان العباد ، ويطول لسانه على بنات الناس المحترمات ، مثل « الحاجة ليلى وهى مريضة » ، وحضرة « الست ظمياء » بنت عمنا » .

وتجيب المجلة السائل بقولها :

« لاتستطيع حكومة العراق التعرض للدكتور « زكى مبارك » بنصف كلمة ؛ لأنه لم يتعرض لأحد من نسوان العباد ، وأما « ليلى » « وظمياء » فهما من الأسماء المنتحلة لشخصيتين خياليتين « كأبى زيد السروجى » مع « الحريرى » ، « وعيسى بن هشام » مع « بديع الزمان » ، اختلقهما « الدكتور زكى » ، ليجرى على ألسنتهما المحاورات والمعانى التى يريدها ... »

ورسالة أخرى من « تونس » يقول سائلها :

« إيش السبب الحكيم زكى مبارك » بقى عزبان وليش ماتجوزوه ؟ بش يسكت لسانه عن التغزل بجمالات النسوان »

وجواب المجلة :

« الدكتور زكى » ليس بحكيم ، بل هو أستاذ ، وقد أخـــذ لقب الدكتورية لنبوغه فى معالجة الأدب لا فى معالجة المصارين .

« والدكتور مبارك » رجل متزوج منذ كان طالبا فى « الأزهر » وله الآن أنجال مهذبون وكريمات لهن أولاد ، إذن فهو ليس « بعزبان » بل هو جد أيضا وله كرامة ووقار رب العائلة » .

ورسالة ثالثه من بلاد النوبة يقول سائلها :

« ياصاحب « الشورى » « والشباب » بحياة أبيك تفهمنا من هـــو « زكى مبارك » وهل هو « شيخ » أم « خواجة » أم « أفندى » ؟ ولماذا يطلق لسانه فى الناس ؟ ... »

وتجيب المجلة قائلة :

« إنه شيخ وخواجة وأفندى فى وقت واحد وأما لسانه فهو كألسنة بنى عذرة ، وقد وصف الدكتور نفسه بأنه من الذين يحبون لقاء الناس بالفجور ، ولقاء الله بالعفاف ، بدلا من أن يلقى الناس بالعفاف ويلقى الله بالفجور »

وتضيف المجلة قائلة :

وقد كتب إلينا أحد أبناء العرب فى « باريس » يقول : إنه يكاد يموت من شدة الضحك كلما قال « الدكتور زكى » فى مقالاته : إن حسان « باريس » كن يتراكضن حوله . ثم قال الكاتب : والحقيقة أن « الدكتور مبارك »

كان إذا رأى حيزبونة تقترب منه هش فى وجهها على ظن أنها حسناء تتغزل بجماله ، وماكان يدرى أنها اقتربت منه لتتفرج عليه ! . . . وقد خطر له مرة أن يداعب إحدى العجائز فى حديقة « لكسمبور » . فحملت له العصا التى تتكئ عليها فهرب .

وإذا « بالدكتور زكى » يسطر تلك الحادثة فى كتابه : « ذكريات باريس » على طريقة توهم القراء بأن بنات « باريس » كن يذبن فى هواه وأنهن يلاحقنه فى الشوارع ! . . . »

وكان رد « زكى مبارك » مايلى :

« أصاب الأستاذ « محمد على الطاهر » فى نقل الأسئلة ، ولكنه لم يوفق فى جميع الأجوبة : فدليلى ، وظمياء ، ليستا شخصيتين خياليتين ، « زكى مبارك » حكيم وإن زعم خصومه أنه ليس دكتورا فى الطب · وهو ليس دميما كما توهم صديقه المقيم فى « باريس » ، وإنما هو رجل مهذب ، يتهافت عليه الملاح تهافت الفراش على المصباح ، وله أخبار غرامية تعطرت بها أندية « القاهرة » و « باريس » و « بغداد » .

هذه بعض طرائفه الغرامية كما رواها الأستاذ « محمد على الطاهر » ، وكما علق عليها « زكى مبارك » . وتبدو آثار الطرافة والوضع واضحة فى الأسئلة والأجوبة . وتبدو الطرافة واضحة فى رد « زكى مبارك » .

وفى كتبه طرائف كثيرة فى هذا الباب . تعطرت بها الأندية كما يقول .

أب وأبوة

رأينا فى الفصول السابقة ، كيف عاش « زكى مبارك » بين الناس قويا ، مرهوب الجانب ، لا يخشى صولة السلطان ، ولا يحسب لها حسابا فى سبيل كلمة الحق ، ورأيناه كيف عاش قويا فى ميادين الأدب والنقد ، وكيف فقد أصحابه فى سبيل إقامة صرح النقد الصحيح ، الذى لايعرف المجاملة ولا النزوات الشخصية . إن طريقته فى الحياة كانت تعتمد على القوة والصراحة ، ولهذا نراه يرسم لأبنائه طريقة تشبه طريقته ، ويلقنهم مبادئه منذ الصغر ؛ لكى يتشبعوا بها ويعتنقوها ليعيشوا أقوياء يحسب لهم حساب .

ومن كلماته فى هذا الشأن بعنوان : « عندما يوافينى الموت » :

« أترونى أبكى على أطفالى ؟ ... هيهات ! . . . لقد ورثتهم خير ميراث حين ربيتهم على العنف والقسوة ، وحين أفهمتهم أن العالم لايسعد فيه غير الأقوياء ، فإن تسلحوا بالقوة فقد انتفعوا ، وإن استسلموا للضعف فعليهم ألف لعنة ، وأنا منهم برئ ! . . .

وقد عودت أطفالى أكل اللحم فى كل يوم لينشأوا على قسوة الحيوان المفترس ، فأن لانت نفوسهم بعد ذلك فعلى أنفسهم جنوا ، وللضعيف الضيم والهوان ! . . . »

وفى الحقيقة أن فى هـذا الـكلام هدى ونبراسا لـكل من يريد أن يحيا حياة عزيزة فى هــذه الدنيا . هذه الدنيا التي تسحق الضعيف بعجلاتها الرهيبة ، فتزيله من الوجـــود ، وتتخطى القوى فيعيش سالمـا غانما .

وفى هذه النصيحة ثورة على أخلاق المجتمع، تلك الأخلاق السائدة بين الأفراد ، والشخص المسالم تضيع حقوقه هدرا ، ويناله من غدر الناس مايزهده فى الحياة وأهلها .

أترون كيف يروضهم ؛ « لينشأوا على قسوة الحيوان المفترس » ، فلا يؤمنون بالأخلاق السائدة بين الناس ، تلك الأخلاق الضعيفة التى هى من صفات المنافقين . بل يواجهونها بالازدراء والتهكم ، ويعاملون أهلها معاملة قاسية ، لارحمة فيها ولا هوادة .

والقوى الذى يجـابه الحياة بقلوب الأسود ، هو الذى يحترمه المجتمع ، ويرهب جانبه ، وأينما تلفت المرء وجد القوى سيد الموقف ، ويجد الضعيف المسالم خلف الصفوف ! .. لايعترف به المجتمع فيعيش على هامش الحياة ! ...

وليس القصد من تلك النصيحة أن يتسلح الإنسان بالقوة لمحاربة الناس وإيذائهم . وإنما القصد أن يتسلح الإنسان بذلك السلاح الرهيب ليتقى هجمات الناس وليرد العدوان بمثله . وهذا السلاح يستعمله

الإنسان ، مادام المجتمع موبوءا ، ولكن إذا صلح المجتمع وانتشرت الثقافة الصحيحة التى تعتمد على احترام الناس ، وعم الخير جميع طبقات المجتمع ، فليس هناك أى داع لاستعمال العنف والقسوة ، لأن جميع أفراد المجتمع آنذاك يحسون بالقوة والكرامة بدون أن يؤذوا غيرهم . هذا المجتمع الصالح هو الذى نفقده الآن .

وفى نصيحته صدى لما لاقاه فى حياته من عقوق وخذلان ، فيرسل نصيحته لكى يكون أبناؤه على علم بهذا المجتمع الذى هم مقبلون عليه ، وخشى أن يتركهم غافلين عما فى الحياة من أسرار فيواجهوها ، وبينهم وبينها سدود منيعة .

وأذكر حادثة جديرة بالذكر فى هذا المقام ، فقد رأيت صديقا فى أحد الأيام مكروبا ، مهموما ، وعندما سألته عن السبب ، صرح لى بأنه لقن أبناءه الأخلاق الحسنة منذ الصغر ، ودلهم على مكارم الأخلاق ، وحثهم على مسالمة الناس والإيمان بهم ، وكان يوجههم دائمـــا إلى الخير والصلاح ، فنشأوا غرباء عن هذا المجتمع ، وعندما واجهوا الحياة أخذوا يكتشفون ما فيهـــا من غرائب وأعاجيب ، وصارت حقوقهم نهبا مقسما بين الناس ونالهم من تلك التربية بلاء عظيم ، ورأوا من غدر الناس ما يشيب من هوله الولدان . وعندما لاموا أباهم ؛ لأنه لم يلقنهم إلى جانب

تلك الأخلاق ، أخلاقا أخرى فى الحذر من المجتمع ، والتسلح لرد العدوان ودرء الشر بالشر .

ومع أن « زكى مبارك » كان قويا ، يوصى أبناءه بالقوة ، إلا أنه كان معهم لين الجانب ، يحنو عليهم ، ويعاملهم معاملة الأصدقاء ، فكانوا يحترمونه ويجلون قدره ، ويقول فى ذلك ابنه « سليمان » :

« وأقسم صادقا إن أبى لم يجرح إحساسى مرة واحدة فى حياتى وإن كنت مخطئا ، بل كان يعاملنا معاملة تدل على حسن التصرف ، وبعد النظر ، فهو يدفعنا إلى بحر الحياة حلوها ومرها ، ثم يراقب أعمالنا عن بعد ، فأن أخطأ أحدنا أعاده إلى الصواب بكل شفقة ورأفة ، قائلا : « أنا لا أرضى لكم بغير التفوق المطلق ؛ لأن الرجل المتوسط لا يستطيع العيش فى العصر الحديث » ، وكان لهذه التربية أثرها فى أنفسنا ، فأنا لا أذكر يوما عبث فيه أخى الصغير فى حضرة أبى مع أن أبى يعامله معاملة كلها عطف وحب وإخلاص ، ويخيل إلىّ أن هذه الطريقة من طرق التربية تبعث فى نفس الطفل أصدق آيات الإخلاص والولاء لأبيه ، وأروع صور الوفاء لوالديه ، وتعوده الاعتماد على النفس ، والشعور بالشخصية . » .

ومهمة الأديب مهمة شاقة ، فهو ينفق ساعات طوالاً فى أداء واجباته ، ثم يعود إلى المنزل لينفق ساعات أخرى فى القراءة والكتابة ، وواجبه — تجاه أهل بيته — يدعوه أن يخصص لهم ساعات أخرى

لملاحظتهم وتربيتهم ، وتوجيههم نحو صالح الأمور . لذلك نرى «زكى مبارك» وهو مثقل بالواجبات ، يحدث دوياً هائلا فى الأوساط الأدبية ، ثم نراه فى منزله أبا رحيما ، يعطف على أبنائه ويسهر على راحتهم وسعادتهم ، فيتحول الأديب الثائر إلى أب عطوف ، يضفى على أبنائه حلل الحب والحنان ، ويتفرغ إلى واجباته الأبوية التى هى أسمى واجبات الإنسان فى هذه الحياة

وقد كان يحرص على مستقبلهم كل الحرص ، ويبذل كل غال ونفيس فى سبيل تربيتهم وتعليمهم ، وقد بلغه — عندما كان فى العراق — أن ابنه «سليمان» نشر مقالا فى «مجلة الصباح» ، وهو ما يزال طالبا فى المدرسة فيفزع ، ويرسل إلى صاحب المجلة احتجاجا ، لأنه سمح له أن ينشر مقالا ، ، وهو مايزال فى مقاعد الدرس ، ومما قاله :

«صديقى ! . . . لقد شاء لك وفاؤك أن تمتعنى بخطاب خاص . تبدد به مافى صدرى من ظلمات : وكأنك لم تكتف بالأفراح التى يذيعها «الصباح» يوم وصوله إلى «بغداد» .

وقلت فى خطابك : «أهنئك بأن لك خليفة فى الأدب والعلم والذوق والأسلوب والإدراك» .

فهل تدرى — ايها الصديق — أن هذا الخطاب أزعجنى ؟ . . . هل تعلم أنه ساءنى أن اعرف أنك ستنشر له كلمة عنى ؟ . . .

« أما أشهد غير مخدوع ولا مفتون أن الشباب عنده بوارق من الفكر والذكاء . ولكنى أنظر إلى مصيره نظر الخوف والجزع . لأنه يسارع إلى الشهرة كما يصنع أكثر الشبان فى هذا الجيل ، والشهرة المبكرة تفتن الشبان أشنع الفتون ، وتصرفهم عن التخلق بأخلاق الأبطال . . . »

ومن الغريب أن يحمل « زكى مبارك » على صاحب « الصباح » تلك الحملة الشعواء ، لأنه نشر مقالا لابنه ، وهو الذى كان يشجع الطلبة على الكتابة والتأليف ، فقد قال فى كتاب « البدائع » :

« وكان بعض زملائى يتشاءمون بين يرون طالبا يراسل صحيفة يومية أو أسبوعية ، وكنت بخلاف ذلك أحض الطلبة على مراسلة الصحف وأسوقهم إلى الميدان . . . »

وتعليل هذا التحول من حال إلى حال ، هو كثرة تجارب الحياة التى أثبتت له أن انشغال الطالب فى غير دروسه وواجباته ، قد يسبب له متاعب من الرسوب والتخلف عن زملائه . والطلبة الذين يسهمون فى الحركة الأدبية ، ويكونون فى نفس الوقت من الأوائل فى مدارسهم ، يعتبرون نوابغ ، وهم من القلة بحيث لا يقاس بهم سائر الطلبة . وفزع « زكى مبارك » راجع إلى أنه أب يسعى إلى خير هذا الابن ، ولا يريده أن يتعرض للرسوب بسبب الجرى وراء الشهرة الكاذبة .

ويختم رسالته بهذه الكلمات ، التى نجد فيها حرصه الشديد على

مستقبل أبنائه ، وتجد فيها خوفه عليهم من عاديات الأيام :

« أما بعــد ، فقد هذبت ألوفا من التلاميذ ، وأدخلت النور على « ملايين ، العقول فى المشرقين والمغربين ، وأنا مع ذلك أتشهى أن يكون لى من صلبى ولد نجيب .

فإن صح رجائى فى بعض أبنائى أو فى جميع أبنائى فتلك نعمة من الله ، وإن خاب رجائى فى بعض أبنائى أو فى جميع أبنائى فتلك أيضا نعمة من الله ! . . .

لقد أدخلت البهجة على جميع من عرفت من القلوب ، فكيف يصل الحزن إلى قلبى عن طريق بعض الإخوان أو بعض الأبناء ؟ . . . »

وكما كان وفيا لأبنائه كان وفيا لأبيه غاية الوفاء ، لقد ردد اسم أبيه فى كتاباته كثيرا ، وكان يجله ويحترمه ، وقد أهداه أول كتاب ألفه وهو « حب ابن أبى ربيعة » ، وهذه أبيات الإهداء :

مازلت أمرح فى نعمى وعافيـة	من نيلك الجزل أو من رأيك الحسن
وأسهر الليل فى علم وفى أدب	أبغى رضاك عن قصدى وعن سنَنى
وأستقل لأجل الفضل ما سمحت	به الليالى لأهل الفضل من محن
حتى بلغت بجدى بعض ما طمحت	إليه نفسى كما يرجــوه لى وطنى
فاليوم أهديك ما أبدعت من أثر	أبقى على الزمن البـاقى من الزمن

وعندما توفى أبوه رثاه فى مقال مؤثر بعنوان : « حديث كله شجون »

وهذا المقال فى الجزء الثانى من « البدائع » ، ومما جاء فيه :

« أبى ! ... إنى لأعجب كيف يصح لمثلى أن يجزع ، بعد أن رأى سخف الدنيا وهزالها ، منذ رآك بين الأموات ، إن الدنيا التى لاتخاف فيها وجه مثل وجهك لاتصلح ميدانا للأفراح والأحزان ، فما الذى يغرينى بعدك بالحديث عن البؤس والنعيم ، وقد رأيت بعينى كيف يضن الوجود على مثلك بالخلود . وما أشقانى بعد اليوم إن غرنى ما فى الدنيا من زخرف وبريق ! ..

أبى ! ... أيسرك أن تعلم أن موتك أورثنى بعض النفع ؟ ... لقد كانت خطوب الزمان لاتؤذينى إلا لأنها تؤذيك ، واليوم وقد تنزه قلبك عن الحزن فلتفعل الأيام ما تشاء ، فسألقى صروف الدهر بقلب أقسى من الموت ، وأعنف من كيد الزمان . »

وزوجته ، لم ينس أن يذكرها بالجميل ، ومن كلامه فيها :

« ويسرنى أن أسجل أعترافى بالجميل لزوجتى الفلاحة ، التى سارت سيرة أمهما وجداتها ، فحفظت قلبى سليما من الهموم التى تزلزل عزائم الرجال .... »

وهكذا نجد الأديب رغم متاعبه الكثيرة لا ينسى أسمى واجب لديه ، وهو الاعتناء بتربية أبنائه والحرص على مصالحهم ، وتهيئة كل غال ونفيس لهم ، ليشأوا رجالا صالحين ، يواجهون الحياة بعزائم الرجال وخلائق

الأبطال ، فيستفيد منهم الوطن وتفخر بهم الأمة .

وقد كان « زكى مبارك » بالرغم من متاعبه خارج البيت كتلة من إخلاص وحب وحنان ، داخل المنزل ، كما نرى ذلك واضحا فى كتبه ومقالاته الكثيرة .

وفاء نادر المثال

كان «زكي مبارك» يتصف بالإحساس المرهف ، وقد فطر على الحب ، فرأيناه يتغنى بالجمال فى كثير من كتبه ومقالاته ؛ وكان قلبه النابض يفيض بالحب والإخلاص والوفاء . وإن دلائل الوفاء كثيرة فى كتبه ، وكان يذكر أصحابه فى كل مناسبة ، ويأسف من فقد بعضهم بسبب النقد ، والمصلحة العامة . وقد كان وفاؤه مضرب المثل بين القراء وبين الزملاء والأصدقاء . كان كثير الحنين إلى ذكرياته التى قضاها مع أصحابه ومعارفه ، ويذكرها بكثير من الشوق ولوعة القلب .

ومن حسناته فى عالم الوفاء . وفاؤه لصغار الراحلين الذين يودعون هذا العالم بصمت دون أن يذكرهم الناس . والشواهد كثيرة على هذا الوفاء العظيم . فكم رأيناه يرثى هؤلاء إذا سمع بوفاتهم ، على حين لا يذكرهم أحد من أقاربهم وأصدقائهم ! . . . أما هو فيذكرهم ويشيعهم بالحسرة والدموع . ويعلل هذه الظاهرة فى كتاب «عبقرية الشريف» عن وفائه الشريف نحو المغمورين من الناس :

«ما هـــذه الغطرسة التى نعتصم بها فلا نهب معانى المودة لغير المشهورين ؟ . . . وهل كان المشهورون أصدق من نعرف ، حتى نقف عليهم لواعج الشوق والحنين ؟ . . .

كم رجل حرمته الطبيعة أسباب التفوق فى الميادين المعاشية والأدبية والسياسية ، ثم وهبته قلبا يشعر ولسانا لا يبين ! . . . كم رجل خامل الذكر صغير الشأن يقبل عليك بنفس تواقة وقلب حنان ؟ . . .

كم امرأة أمية لاتعرف غير شئون البيت ، ثم تمد زوجها بأرواح من القوة والفتوة لاتقدر على مثلها المتخرجات فى « السوربون » ! . . .

إن الصداقة لها منابع غير منابع العرفان ، والرجل العالم لايصادق إلا حين يرجع إلى الفطرة الأولى ، فطرة الإنسان الحساس ! . . .

فلا تلوموا « الشريف » إن رأيتموه يرثى ناسا لا يسمح مقامه الاجتماعى بذكر أسمائهم فى الديوان ؛ فتلك وثبة فطرية لاتصدر إلا عن كرام الرجال ! . . .

بهذه الكلمات يحلل موقفه من صغار الراحلين الذين لايذكرهم أحد ، فيتطوع وهو صاحب الوفاء ، فيذكرهم ، ويرثيهم ، ويتوجع لمصارعهم .

وقد اطلع فى أحد الأيام عندما كان فى « باريس » على خبر انتحار شاب مصرى ، وكان هذا الشاب من تلامذته ، تخرج فى « كلية الآدب » ، وكان شاعرا مرهف الإحساس . قرأ الخبر فى « مجلة الصباح » المصرية ، فرأى متناقضات تحير الإنسان فقال :

« لا أدرى كيف بدا لى أن أتأمل الصفحة التى نشر فيها هذا الخبر من « جريدة الصباح » ، فقد رأيت بجانبه فى الصفحة نفسها إعلاناً عنوانه :

«افتتاح موسم الموسيقى والطرب» وإعلانا آخر عنوانه : «هل تريد جسما جميلا» وكذلك تشابهت أمامى مناظر الحياة : سعادة يجاورها شقاء، وبؤس يجاوره نعيم، والدنيا حلم قصير تزعجه يقظة الموت . . . »

ثم يقول فى آخر المقال :

« لا يزال يتمثل أمامى «أحمد العاصى» يوم رأيته أول مرة فى أوائل سنة ١٩٢٦ م، ويوم رأيته آخر مرة فى أوائل الربيع الماضى، فأليه فى عالم الأرواح أهدى هذه الكلمة . وما كان ينتظرها منى، ولكن الحر من راعى وداد لحظة، فكيف وقد كان رحمه الله من تلامذتى الأبرار ؟! . . »

وقد كان مقاله عن هذا الشاب وافيا، تكلم فيه عن حياته وشعره وظروفه الخاصة التى أودت به وهو فى ربيع الحياة . حقا أنه لم ينتظر هذا الوفاء، ولكن «زكى مبارك» جبل على الوفاء. وفطر على الحنين لمن يعرف من الناس، فتراه يفى، والأوفياء قليلون .

وجاءته مرة رزمة من الصحف العراقية، وعندما تصفحها وجد صورة منشورة فى كل منها لأحد أصدقائه العراقيين، هو «إبراهيم حلمى العمر»، فقال : «فعرفت أنه مات، وهل تهتم الجرائد فى يوم واحد بنشر صورة لأديب إلا حين يموت ؟! . . . »

وكتب عنه كلمة فى « مجلة الرسالة » ، بين فيهـــا منزلته الأدبية ، والذكريات التى تربطه به ، عند ما كان فى « بغداد » ، وأبدى حزنه لموته ، ومن قوله : « فهو أنس ذهب ولن يعود ، وإنى لذهابه لحزين ، أحسن الله عزائى فيك يا « إبراهيم » [١] . . .

وفى ديوان « ألحان الخلود » رثاء وتوجع وأنين ، لشاب اخترمته المنية فى ربيع الشباب ، اسمه « رشدى » ، فمن هو « رشدى » ؟ . . . يقول « زكى مبارك » : إنه تلميذه وراوية شعره ، وابن صديقه « محمدعبدالوهاب » الموظف بمطبعة دار الكتب المصرية ، ويقول فيه :

« إن « أحمد رشدى » لم يكن ينتظر أن أرثيه فى « جريدة البلاغ » ، حين يموت ، قبل أن تكون له منزلة أدبية يرى الجمهور أنها جديرة بالرثاء ، هل كان يحب أن تكون وزيرا يموت لأرثيك ؟ . . . لنا يا « رشدى » آداب غير تلك الآداب . . . »

لقد رثاه بعدة قصائد وعدة مقالات ، وهذه أبيات من إحدى قصائده :

تذكرت رشدى فى صباحة وجهه	وفى صوته الحنان كالنحل فى الورد
لقد خلت الدنيا ، خلت من وداده	فأضحيت مقهورا وخلفتنى وحدى
أفى كل يوم جمرة مــن صبابة	تشب بها الأحزان وقدا إلى وقد
لقد عجزت عن النوائب كلهـــا	فلم ترمنى يومـــا بأودية السهد
ولكنها ـ والبغى بعض صنيعها ـ	أصابت فؤادى عند موتك يا « رشدى »

سرائر الروح الحزين

تسود كتابات «زكي مبارك» موجة من الأسى والأنين، وتتسم بعض كتبه بالحزن والحنين، وكتاباته الوجدانية عبارة عن قصائد طويلة، في التوجع والشكوى. إن لهذا الحزن أصولا ترجع إلى أيام الطفولة، وقد سبق الكلام عن نشأته الحزينة، وكيف تأثر بالجو الحزين الذي شب فيه.
وزاد حزنه عندما توفيت تلك الروح التي خفق لها قلبه أول خفقة، والتي قال فيها أول قصيدة. وسكب عليها أول دمعة، وأخذت الأيام تزيد حزنه ضراما على ضرام. وأصبح قلبه يتلقى سهام الحياة بدون هوادة، وصار يشهد الأحزان في أسرته بسبب حوادث الأيام وعاديات الزمن.

وعندما بلغ مبلغ الرجال، رأى المجتمع غير المجتمع الذي رسم له صورة في مخيلته... كان شاعرا مرهف الإحساس فظن الناس أجمعين في مثل إحساسه، يملأ قلوبهم الحب والحنان، ويستهويهم الجمال في شتى صوره ومعانيه. كان يظن أن الخلق الذي شب عليه في الريف هو الخلق السائد في جميع أفراد المجتمع. ولكن الشواهد كذبته، والأدلة المتلاحقة أخلفت ظنه بالناس، فرأيناه نتيجة لذلك يحمل على المجتمع وأخلاقه حملات شعواء وينصح القارىء بالتسلح بسلاح القوة والسطوة؛ لكي يعيش مرهوب الجانب محترما من الناس.

رأى هذه المتناقضات فأثرت فى نفسه واصطدم بسببها مع كثيرين من أفراد المجتمع متهما إياهم بالجحود والعقوق.

ومرت الأيام فأصبح من أهل العلم ، وتقلد منصب المـــدرس فى الجامعة ، ومنصب المفتش فى وزارة المعارف وحاول البلوغ إلى أهداف بعيدة رسمها لنفسه ، ولكنه لم يبلغها لأسباب مرت فى فصل سابق . فزاد حزنه وضاق بهذا اللون من العقوق ، وأخذ فى الشكوى والأنين .

كل هذه الأسباب كونت عقدة الحزن فى نفسه ، فجعلته يرسل تلك النفثات المؤثرة المبثوثة فى كثير من كتاباته ، وصار للحزن عنده فلسفة يقول فيها :

« والحزن ليس مصدر ضعف ، كما يتوهم الناس ، وإنما هو مصدر قوة ؛ لأنه دليل على شعورنا بقيمة ما نفقد من الناس ومن الأشياء .

والحزن مقصور على الحيوانات الراقية ، وأرق أنواع الحيوان هو الإنسان »

وفى الواقع أن الحزن الذى يفيض من النبع الرقراق فى أعماق النفس الإنسانية ... هو الحزن الذى يصدر عن آلام المجتمع وآماله ... هو الحزن الذى يتجاوب مع أحزان المعذبين والكادحين .

والإنسان الذى يعم نفسه مثل هذا الحزن ، يبدع فى خلق صور فنية من العلوم والآداب والفنون ، إن هيأته الطبيعية لذلك الإبداع ، وإن هيأه استعداده للخلق والإبداع .

أما الحزن المثبط ، فذلك حزن بمقوت يذل النفس ، ويقتل الإحساس

ويبلد الشعور ، ويقضي على صاحبه ! . . . وقد كان حزن « زكى مبارك » من الحزن الخلاق ، فألف كثيرا من الكتب ، ونظم كثيرا من القصائد الممتعة ، ومن كلماته فى مخاطبة القارىء :

« إليك أيها القارىء أنفض أحزانى وأشجانى ، ولو شئت لدللتك على غيالق من المؤلفين فى المشرق والمغرب شكرا دهرهم كما شكوت ، وتوجعوا من زمانهم كما توجعت ، وعانوا من غدر الأصدقاء والزملاء بعض الذى أعانى . فأنا لم أبتكر شكوى الزمان ، وإن كنت أشقى المكتوين بغدر الزمان .... »

لم يبتكر « زكى مبارك » فن الشكوى ولكنه أضاف عليه أفانين من الإبداع ، والشعراء لهم فى هذا الباب أروع القصائد وأبدع الأشعار ، ولكن « زكى مبارك » بما أوتى من أسلوب مبتكر فى النثر — استطاع أن يحول الشكوى من الشعر إلى النثر بصورة جديدة تطرب وتشجى .

وموارد أحزانه كثيرة ، فنى كل يوم له عتاب جديد ، وفى كل ساعة له حزن مؤثر ؛ فتارة يشكو عقوق الأصدقاء ، وتارة يشكو غدر الزمان ، وطورا يشكو من عقوق الرؤساء وطورا يضج بغدر الأيام .

وما أكثر ما ردد كلمة العقوق . . . لقد كانت هذه الكلمة تكثر فى كتاباته بمزيد من اللوعة والأسى ، وكان يتهم المجتمع ويتهم المسئولين بالعقوق ، ويردد كلمة الظلم فى كتاباته ، ويصف نفسه بالأديب المظلوم

أو الشاعر المظلوم ، ويعزى قلبه فى كل وقت وآن ، ومن كلماته :

« قلبي ! . . . كيف أصبحت وكيف أمسيت ؟ . . . فما عدت أسمع خفوقك فى صباح ولا مساء ! . . . صام النـاس منـــذ أيام فتذكرت صيامك . . . إنهم يصومون من الفجر إلى الغروب ثم يفطرون ، وأنت ياقلبي تصوم ليلك ونهارك ، وأخشى أن تصوم دهرك . وسيقضى صيام الناس بعد أسابيع حين يجئ العيد ، وتبقى وحدك بلا عيد . . . »

ويخاطب الصحراء فيقول :

« أيها الصحراء ! . . . إن حالك مثل حالى موات فى موات ، وقد تمرح فوق ترابك الميت هوام وحشرات ، وفوق ثرى قلبي الميت تمرح هوام وحشرات هى السخرية من الناس ، واليأس من صلاح القلوب ، وجمال الوجود . وقد ترق حواشيك بالندى أو الغيث فتنبت فوق ترابك الأعشاب ! . . . أما قلبي فقد أمحل إلى الأبد ، ولن ينبت فيه شيء ، وأشقى الناس من يعيش بقلب أجدب من الصحراء . . . »

ويخاطب الليل فيقول :

« أيهـا الليل ! . . . هل رأيت فى دنياك من ينافسك فى ظلامك غير قلبي ؟ . . . هل عرفت منـذ أجيال وأجيال شقاء مثل شقائى ؟ . . . أيهـا الليل خذ السواد من قلبي ، إن أعوزك السواد . . . خذ الظلام من حظى إن أعوزك الظلام ! . . . أيها الليل ! . . . لاتجزع من العزلة ، فأنا هناك

أسامرك وأناجيك ! . . . لاتفزع من الوحدة ، فى قلبى ظلمات تساير ما تحمل من ظلمات ! . . . عندى آلامى ، وعندك آلامك ، والجريح يأنس بالجريح ياليل . . . »

وإن سرائر هذا الروح الحزين منبثة فى كثير من كتاباته ، نلمحها واضحة بين سطوره ونلمح معها قلبه الذى يفوق الليل سوادا وظلاما كما يقول .

إن هذه الأحزان هى التى جعلت أدبه يشيب قبل الأوان ، بعد أن تحولت من حال إلى حال . لقد كانت أحزانه مصدر قوة ، فأضحت مصدر ضعف ونهالك .

وقد كانت أحزانه تمده بفيض زاخر من الأدب والفن ، فأمست تبعده عن الأدب الرفيع والفن الراقى . إن هذه الأحزان التى دفعته إلى الإبداع فصار من كتاب الطليعة ، هى نفسها الأحزان ، التى قضت عليه وجعلت الأستاذ «محمد رجب البيومى» يكتب قبل وفاة «زكى مبارك» بمدة وجيزة ، فيقول :

«وكم يدركنا الأسف إذ نشهد «زكيا» قد نزل عن سمائه بعد أن ترك «الرسالة» ، فتراه يقف الآن فى آخر الصفوف ، وقد كنا نرقب له الغد المشرق البهيج» .

تلك الأحزان المتراكمة التى تحولت إلى نيران متأججة فى صدره ، هى التى هدت قواه وقضت عليه .

ألحان الخلود

مر بنا شيء عن شاعرية «زكي مبارك» وبينا أنه شاعر بالطبع والسليقة، وقد نظم الشعر وتغنى به وهو في ربيع الحياة وأرسل ألحانه العذبة تتهادى في محاريب الحب والجمال، منذ أن رزق القدرة على نظم الشعر . وأشعاره في الغالب الأعم نظمها في الغزل والتشبيب ، ولا غرابة في ذلك فقد فطر على الحب ، واستهواه الجمـــال وهو في مطلع الشباب في مسقط رأسه « سنتريس » .

صدر ديوانه الأول وفيه مقطوعات من الشعر والغناء ، وقد استقبله النقاد استقبالا حافلا ، ورحبت به الصحافة العربية أجمـــل ترحيب ، وقالت عنه « مجلة أبولو » الشعرية ، التي كان يصدرها الدكتور « أحمد زكي أبو شـادي » :

« الدكتور « زكي مبارك » شاعر غنائي بطبعه ، فلفظه موسيقي كصوته المعروف لخلانه . وشعره يحوم حول العاطفة ويقتات بها ، سواء أكانت عاطفة جنسية أم وطنية . ولو عبر شاعرنا عن عاطفته الوطنية نظما ، بدل حصرها في نثره الفني ؛ لـكان لنـا منه ذخيرة شعرية قيمة على مدى الزمن . وشعر ديوانه صور شتى من عواطفـــه ، وخواطره هي مرآة

نفسيته ونظراته إلى الحيـــاة ، وهو أمين بفطرته فى تصوير نفسيته بهذا الشعر جميعه ، وكى بهذا الصدق المطبوع فى التعبير فخراً لأى شاعر ، فأن هذه هى الصفة الخالدة التى لا يقال عنها أى نقد ، والتى تستنكر بجانبها المقارنة والتفضيل » .

ومن المعروف أن « مجلة أبولو » كانت مخصصة للشعر ، وكانت تهدف لإيجاد مدرسة شعرية تسمو بالشعر العربى الحديث إلى مصاف الآداب العالمية . وكانت تقدم إلى القراء نماذج فنية من روائع الشعر العربى ، وهذا الشاهد الذى أثبتناه هنا ، دليل واضح على شاعرية « زكى مبارك » وجودة شعره ، كما هو دليل واضح على مكانته الممتازة التى يتمتع بها بين الشعراء المجيدين .

كان « زكى مبارك » فى مطلع حياته الأدبية ينظم طوال القصائد ، وقد تبلغ إحداها مئات الأبيات ، ولكنه غير هذا الاتجـــاه ، عندما اتصل بشخصيتين أدبيتين ، هما « سيد المرصنى » و « محمد المهدى » ، فقد رسما له الطريق ودلاه على الطريقة المثلى التى يجب أن يتبعها ليخلد شعره على الأيام ، فبعد أن كان القراء يقرءون له القصائد الطوال ، إذا به يفاجئهم بمقطوعات قصيرة ، وأمعن فى الاختصار حتى قرءوا له فى « جريدة السفور » بعنوان : « ظلام الليل ، هذا البيت » وتحته توقيعه :

وجن علىّ الليل حتى حسبته جفاء كريم أو رجاء لئـــيم

حقا أنه تحول عجيب، ولكنه تحول مفيد يجوّد شعره، وينقيه من الشوائب التى كانت عالقة بقصائده الطويلة السابقة .

ومعظم قصائده الأولى مقطوعات قصيرة، ولكنه يضع فيها مايعتلج فى قلبه من لواعج الشوق والحنين فى ذلك هذه المقطوعة :

ربـاه صفت فـؤادى من الأسى والحنـين
ولم تشـأ لضـلوعى غير الجـوى والشجـون
فكيف تصفو حيـاتى ... من الهوى والفتون ؟ ...
أم كيف ترجى نجـاتى ... من ساجيات الجفون ؟ ...

وهذه المقطوعة :

لقـد صددنا كما صددتم فهـل ندمتم كما ندمنـا
وشفنا الوجد مذ جفوتم فأظهر الدمـع ما كتمنـا
وهبت روحى وقلت عطفا فما عطفـتم وما رجعنـا
ما ازددت خوفا على فؤادى إلا وزدتم رضى وأمنـا
فقلت نفسى على جفـاكم وما قرعـتم على سِنّنا
لو كنت أشكو الهوى لصخر لحن وجدا وإن حزنا
وذاب من هول ما أراه فقـد برانا الهوى وذبنـا

وهذه المقطوعة :

أيهـا الظالم الجميـل سلام من أسير قيدته بجفاكا

كيف أصليتني من الهجر نارا وحرمت العيون من أن تراكا
ليت من شاء أن يطول أسانا في سبيل الهوى أطال أساكا

وهذه المقطوعة :

أجبني إن تفضلت على المسكين بالرد
أأنس الدهر ما جادت به عيناك من وعد ؟ . . .
وأرسم للسنى خدا وما لجواى من حد ؟ . . .
وأقنع بالردى وردا وغيرى سائغ الورد ؟ . . .
وأرضى باللظى مثوى ووجهك جنة الخلد ؟ . . .

وتختم هذه المقطوعات بهذين البيتين :

قالوا عشقت فقلت كم من فتنة لم تغن فيها حكمة الحكماء
إن الذى خلق الملاحة لم يشأ إلا شقائى فى الهوى وبلائى

وربما نظم فى أغراض أخرى غير الغزل والتشبيب ، ولكنه كعادته يضمن فى البيت أو البيتين آراءه التى يريد نشرها على الناس . وقال بعنوان : « أيام الشباب » :

ولم أر كالفحشاء يغرى بها الفتى ويثلم منها عرضه فيهون
وما كان زين النفس إلا عفافها ولكن لأيام الشباب شئون

ويقول « زكى مبارك » عن نفسه : « كان صاحب الديوان من المتقشفين يوم كان طالبا وكان يرى كل لهو جريمة » ، ومن شعره فى هذا الموضوع :

زمان الصبا مهلاً عن الغي ناهيا فترحل محمودا وتحمد ثاويا
صرفت نفوس الناشئين عن العلا وأوردتهم يمًّا من الجهل طاميا
لقد كنت عهد الجد لو أبصر الفتى فودع رياه وأصبح ساليا
ومن لم ينل عند الشبيبة حظه من المجد لم يخضع له المجد ثانيا

أتينا بهذه المقطوعات القصيرة لنبين ما ذكرناه من إيثاره الاختصار في نظم الشعر. وقد تتجاوز بعض قصائده الثلاثين بيتا، ولكن الإيجاز يغلب على أكثر قصائده.

والسبب في هذا الإيجاز هو عدم تفرغه للشعر، فقد انتهبت مؤلفاته الأدبية والفلسفية أكثر أوقاته وصرفته عن نظم الشعر، فأن وجد في نفسه ميلا إلى نظم الشعر، ولم يستطع كبت هذا الميل، أخذ ينظم تلك المقطوعات التي أشرنا إليها. أما القصائد الطوال فهي تحتاج إلى وقت طويل وجهد متصل. وقد كان اهتمامه منصبا على أبحاثه وكتبه الكثيرة.

وشاء الله أن يذهب إلى «بغداد»، وهناك عاوده الحنين لنظم الشعر، ففاضت نفسه بقصيدة طويلة بلغت أكثر من مائة بيت، ومما قال فيها:

عفا الحب عن «بغداد» كم كنت لاهيا أكابر أيامي بليلي وظميـاء
فكيف وقعت اليوم في أسر طفلة مكحلة بالسحر ملثـوغة الراء
أحاول عينيها بعيني والهـوى يشيع الحيا في فؤادي وأعضائي
وأشهد أطياف الفراديس إن بدت تراود أحلامي مزاحا وأهوائي

أ «بغداد» هل تدرين أني مودع   وأن سموم البين تلفح أحشائي
أ «بغداد» هذا آخر العهد فاذكرى   مدامع مفطور على الحب بكاء
أ «بغداد» يضنيني فراقك فاذكرى   لدى ذمة التاريخ بيني وأضنائي
خلعت على الدنيا جمالك فانثنت   تخايل في طيب وحسن ولألاء

إن هذه القصيدة أحيت طاقته الشعرية وجعلته يعاود نظم القصائد الطوال، ولم يتفرغ للشعر بعد رجوعه؛ لأنه اشترك في تحرير «مجلة الرسالة» عددا من السنين، وعمله في «الرسالة» كان منحصرا في خلق المعارك الأدبية وكتابة موضوع «الحديث ذو شجون» ولكنه كان في بعض الأوقات يسطر القصائد الطوال التي تبلغ إحداها المائة من الأبيات فما فوق «كقصيدة «مصر الجديدة»، وعندما تعرضت «الإسكندرية» لخطر القنابل و الحرب العالمية الثانية نظم قصيدة «دار الوجد والمجد» في حدود مائة وخمسين بيتا وآخر قصيدة نشرها في الرسالة كانت بعنوان «غرام يوم الثلاثاء».

وبعد أن ترك «الرسالة» تفرغ لنظم الشعر. فأخذ يطلع على القراء بقصائده الطويلة، ويمهد لكل قصيدة بمقدمة تحليلية ... وقد أخذ هذا الفن عن «لامرتين» ! . . .

وهذه المقدمات في حد ذاتها لا بأس بها، بل قد تكون ضرورية في أكثر الأحيان، ولو أنها خلت من الغمز واللمز لما كان عليها غبار

لوم وتثريب ، ولكنّ الشاعر هاجم فيهـا كثيرا من الشخصيات بقسوة وعنف . وكان يذكرهـا بالخير فى السابق ، ومرد هذا إلى الحالة النفسية التى وصل إليها بسبب شعوره بالظلم والعقوق .

وفى سنة ١٩٤٧ م أصدر ديوانه الثانى باسم « ألحان الخلود » جمع فيه كل مانظمه من القصائد مع مقدماتها الطويلة ، وضم إلى الديوان الجديد ديوانه القديم الذى ورد ذكره منذ قليل . والديوان الجديد ملفت للنظر بقصائده الطويلة ، خلافاً للديوان السابق الذى كان يضم مقطوعات قصيرة ، أكثرها فى الحب والغزل والتشبيب .

أما الديوان الجديد فحافل بقصائد الغزل والتشبيب ، وحافل بقصائد التوجع والأنين ، والحزن فيه خصيصة أصيلة ، ويقول هو :

« إن الحزن يتموج ملتهبا فوق صفحات هذا الديوان ، وهو حزن أصيل . . . إنه حزن لم تكن لى فيه إرادة ، وإنما هو رزق ساقته المقادير بغير حساب لغاية يعلمها علام الغيوب . . . » .

وليس فى الديوان مديح لأحد من المسئولين ، وكيف يكون ذلك وهو أشد الثائرين ضد المسئولين ، وقد هجا كثيرا منهم فى الديوان شعرا ونثرا ، حتى تعرض للفصل من وظيفته كما مرّ بنا ، ويقول هو : « وليس فى أشعارى مديح ، فمـا أعرف رجلا أعظم منى : لأنظم فيه قصـائد المديح . . . » .

وكلمته الأخيرة هذه تصور نفسيته خير تصوير : « فزكى مبارك » الناقد الثائر الذى هاجم الأدباء وهجا الوزراء لا يرى أحداً جديراً بالمدح ، خصوصا بعد أن رأى استهانة الناس بالأخلاق الإنسانية الراقية ، وأصبح النفاق والملق والغش هى الأخلاق السائدة فى المجتمع ، — لهذا لم ير رجلا أعظم منه ليقول فيه كلمة المديح .

وقد قرأت مقالا للأستاذ « أحمد الجندى » فى « مجلة الثقافة » عن « زكى مبارك » ذكر فيه أن السياسة استخدمت الأقلام فى الحرب العالمية الثانية لأغراض خاصة ، ولكنها لم تستطع استخدام قلم « زكى مبارك » ؛ لأنه كان وطنيا مخلصا يفضل الحرمان على الكسب الوضيع . وهذه مكرمة تسجل فى سيرة « زكى مبارك » بالمجد والفخار .

يرى « زكى مبارك » أنه حامل لواء الشعر بعد أن خلا الروض من كبار الشعراء إذ يقول :

« ولن يستطيع ناقد متحذلق أن يكتب حرفا فى نقد هذا الديوان ، فما عرفت اللغة العربية — فى تاريخها الحديث — قلما أمضى من قلمى ، أو بيانا أبلغ من بيانى .

قال الدكتور « محمد صبرى » إن ديباجتى الشعرية ديباجة بحترية وهى كلمة يريد بها الثناء ، ولكننى عند نفسى أشعر من « البحترى » ، وأشعر من جميع الشعراء ، لأنى ملك الشعراء . . . . » .

ويقول فى مكان آخر :

« وأنا مع هذا لا أظلم نفسى رغبة فى تسامح الناقدين ؛ فهذه المجموعة الشعرية لم يسبق لها مثيل فى الشعر الحديث .

قال الفرزدق: يمر وقت يكون فيه نظم بيت من الشعر أصعب من خلع الضرس ! . . . ما الموجب لهذا الثناء ، يأيها « الفرزدق » ؟ . . . إن أشعارك كلها لا تساوى هذا البيت :

لقـــد صددنا كما صددتم فهـــل ندمتم كما ندمنـــــا

وأعتقد أن « زكى مبارك » يعرف جيداً أنه يبالغ فى الثناء على نفسه ، لذلك نراه يعترف صراحـــة فى مكان من الديوان بقوله : « لا أنا ولا ألوف من أمثالى يصلون إلى منزلة أبى تمام الشعرية . . . »

ويقول فى خاتمة الديوان :

« قد يرى القارىء بيتاً ضعيفاً فى قصيدة قوية ، فيسأل عن السر فى الإبقاء على هذا البيت الضعيف . وجوابى أن ذلك البيت قد يكمل الصورة ، وعلى فرض أنه حشو فالحشو ينفع فى إقامة أعالى المبانى .

« وابن الرومى ، الشاعر العبقرى قد اعتذر عن الأبيات الضعيفة فى القصائد القوية فقال ما معناه : « إن الشجرة القوية تعتمد فى حياتها على أغصان ضعيفة » وقد صدق . وفى الديوان مقطوعات لا تحتمل النقد ، لأنها فى غاية من الضعف ، ولكنى أبقيت عليها ، لأرى فيهـــا الخطوات

الأولى من حياتى الشعرية » .

أين هذا الكلام من قوله السابق . « ولن يستطيع ناقد متحذلق أن يكتب حرفا فى نقد هذا الديوان » إنه فى الواقع ينقد نفسه هنا ليسبق بعض النقاد الذين يلاحظون هذه الهفوات عند قراءتهم ديوانه . وقد اعترف بأنه : لاهو ولا ألوف من أمثاله يصلون إلى منزلة أبى تمام الشعرية ،بعد أن قال إنه ملك الشعراء . وهكذا فقد وقع فى تناقض واضح ، وهذا راجع إلى فوضى الديوان كما صرح الشاعر نفسه .

إن قصائده فى ديوان ألحان الخلود على وتيرة واحدة ، أكثرها فى الغزل والتشبيب ، وقد يكرر المعنى فى كل قصيدة ؛ لذلك فأن الباحث يتعب إن أراد أن يحلل شعره بالمعنى المعروف . ويعتمد على الألفاظ أكبر اعتماد ، وتستهوية النغمة الموسيقية ، فنراه يكثر من استعمالها .

وأرى — إتماما للبحث — إيراد نماذج قليلة من شعره الجديد فى ديوان « ألحان الخلود » . فن قصيدة بعنوان « إلى الجمال جمال » وهى تبلغ مائة وتسعة أبيات :

لولا جمالك تصبينى فراتنه	ماققت فى الشعر والتغريد أقرانى
حنا الجمال على روحى يسامره	تشائق من أغن الصوت فنان
فقمت أرسل لحنى فى ذوائبه	هوى يصول بأدواح وأفنان
فن جمالك وهو الدر فى نسق	كالشعر ينظم أنغاما بأوزان

جمال وجهك فى تقسيمه عجب ... كأنه حلية صيغت بميزان
قال الخليون فى شجوى مقالتهم ... وجرحونى بأظفار وأسنان
فليرجعوا وليكفوا عن ضلالتهم ... فما لغير الهوى للمرء عينان
أكان إثما عظيما أن أكون فتى ... الحسن فى شعره أزهار بستان ؟
لا تسألوا أين شوقى ، ذلكم علم ... لو قام من قبره يوما لحيانى
إنى تحديته حيا فآمن بى ، ... أين الذى بمعانيه تحدانى ؟ . . .

وله قصيدة اسمها : «قصيدة مصر الجديدة» ، بلغت أكثر من مائة وستين بيتا تحدث فيها عن جمال « مصر الجديدة » ، وتحدث طويلا عن الحب والهيام ، وعاتب فيهـا أحباءه ، وقال فى مقدمتها : « حدثت ، الأستاذ الزيات ، أنى سأنشر قصيدة أتحدى بها جميع الشعراء ، وأقول : إن هذا الزهو لم يخطر فى البال وأنا أنظم هذا القصيد ، فقد أوحته روحانية لا تسيطر على النفس إلا فى أندر الأحايين . فجاء كما يراه أقباسا من الأشواق العواصف بالقلب والوجدان » .

وقد ثارت نفسه فى هذه القصيدة ، فسجلت منه الأبيات :

أحبـاى ضاقت بى بلادى وآذنى ... زمانى فأولانى من الكرب ما يردى
إذا قلت أيام الشقاء إلى مـدى ... تعاقبن بالأنواء والبرق والرعـد
وإن ظمئت روحى إلى الصفو صدنى ... عن الصفو أقوام جبلن على الحقد
ثـلاثون عامـا أو تزيد قضيتها ... جوادا يبذل الروح للوطن الفرد

فما نلت حظا من جداه سوى الهذى يمن به أهل الوشاية والكيد

بلادى بلادى أنت من أنت؟ . . إننى أجرع فيك الصاب ينعت بالشهد

أساهر فى «ليلى» كتابى ولا أرى لنفسى حظ الساهرين على الفرد

بلادى أمن جرم جنيت تحولت حياتى إلى وجه من العيش مرمد

لئن كان لى ذنب فذلك تولهى بشرح الذى زودت فى الدهر من مجد

ستمضى الليالى ثم تمضى ولا يرى جلالك أقوى من غرامى ولا وجدى

توحدت مقهورا فمالى إخوة ولا صحبة يقوى برفقتهم زندى

توحدت لاخل أبث شكايتى إليه ولاحب يؤرقه سهدى

إذا آذى الدهر اللئيم بجفوة تحول أهلوه إلى عصبة لُد

وتعرضت الإسكندرية إلى الغارات الجوية فى الحرب العالمية الثانية، فنظم قصيدة بلغت حوالى مائة وخمسين بيتا وقال فى تقديمها :

« لوعاش « شوقى » إلى أن شهد ماتعانى « الإسكندرية » من كوارث وخطوب لواساها بأطايب الشعر البليغ ، فالى روحه فى دار الخلود أهدى هذا القصيد ، وقد جاء فى هذه القصيدة :

بأهل إسكندرية بعض مابى من الأحزان للثغر المصاب

عروس البحر ماهذى الرزايا تصب على بنيك بلا حساب

سمعت حديث نكبتهم فأمسى فؤادى فى انصداع وانشعاب

فما آثام أهل «الثغر» حتى يشن عليهمُ وبل العذاب؟

حضت زمر إلى الأرياف منهم مضى الأسد من غاب لغاب
أمن بعد الحشايا ناعمات يكون بساطهم متن التراب ؟
إلى جلواتهم فى الصيف كانت تزف أطايب الحسن اللباب
وفى داراتهم كان التنادى إلى الصبوات فى الشط الرغاب
فكيف مضوا حيارى لم يثوبوا إلى زاد يعد ولاثياب
وكيف غدوا بهذا الصيف صرعى لمشئوم الشتات والاغتراب

وله قصيدة بعنوان «الغرام الجديد» ، وهى تقع فى أكثر من مائة بيت ، والقافية فيها تتغير فى كل بيتين ، ومما جاء فيها :

عصرت راح غرامى من زاهرات الخدود
وكان نقل مدامى من ناهدات النهود

لولا غنائى وشعرى لمات روح الوجود
لولا بيانى وشرى لضاع سر الخلود

أنا النجى الغريب من القلوب الشوارد
أنا الظلوم الحبيب إلى الصدور النواهد

الكون ما الكون قل لى يامبدع الكائنات
هل كان إلا مراحا لأنفس حائرات ؟

إن كان فى الناس قوم رأوا هلال السماء

فــفى مـــرآر قلبى والروح ألف ذكاه

ويقول فى قصيدة « غرام يوم الثلاء » ، وهى قصيدة طويلة ، متعددة الأوزان والقوافى :

يا غـــرام الروح والروح فـــداك

أين نجوى الحب فى عهد الصفاء

أحرق القلب شـــواظ من نواك

بالهوى قل لى متى يوم اللقاء ؟! . . .

أين يا روح ليال سلفت وأغاريدك يا صـــداح زادى ؟

لا تقل تلك الليالى ذهبت جمرها المشبوب باق فى فؤادى

إن طول القصيدة يتعب الشاعر — أى شاعر — ويجعل أنفاسه لاهثة قبل أن يبلغ النهاية . . فكيف بقصائد « زكى مبارك » التى تبلغ أحيانا مائة ومائتين من الأبيات .

إنه لو غربل هذا الشعر الكثير لحصل منه على ديوان صغير يتناقله السمار عشاق الأدب ، ويتدارسه الأدباء فى كل مكان .

نهاية المطاف

لابد للإنسان من ضجعة	لا تقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجبه	وما أذاق الموت من كربه
نحن بنو الموتى فما بالنا	نعاف ما لابد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا	على زمان هنّ من كسبه
يموت راعي الضأن في جهله	ميتة « جالينوس » في طبه

« المتنبى »

من كان يصدق أن « زكى مبارك » الذى اشتهر بالجد والثبات والعمل المتواصل يعتزل القراء ، فلا يكتب إلا عفو الساعة وفيض الذاكرة ، كما يقول « الزيات » ، وإن كتب فكتاباته تخالف ما عهده القراء منه من جودة وإتقان وقوة ؟ . . .

من كان يصدق أن هـــذا الناقد العملاق التى مرت أخباره فى الفصول السابقة ، يترك النقد الصحيح . ويهاجم الأشخاص قبل أن يهاجم أدبهم ، وطرائقهم فى الأدب والنقد ؟ . . .

من كان يصدق أن هـــذا الأديب الذى هز الميادين الأدبية وشغل المحافل الثقافية ، ينزوى فلا يكتب إلا سقطات الكتاب الشخصية ،

وحوادث المجتمع التافهة التى لا يحفل بها قراء الأدب الرفيع ؟ . . . لقد أسف القراء أشد الأسف لتخليه عن كتاب الطليعة ، وكانوا يحلونه المحل الأسمى ، ويترقبون له النجاح المطرد والفوز الباهر . ولم يدر فى فى خلدهم أنه سيستسلم لليأس والضعف ، بعد أن كان يهاجم أهل اليأس والضعفاء من الناس .

كان يدعو إلى القوة والعنف ، فصار يركن إلى اليـــأس ويتخلق بأخلاق الضعفاء ، فيزعم فى كتابه أن فلانا الأديب يقتابه وأن فلانا الشاعر يهاجمه ، ويصرح بأن هذا أديب معتوه مخبول ، وذاك مجرم أثـــيم .

وقد كان أنصاره وعشاق أدبه يخشون عليه من هذا المصير ؛ فقد كتب إليه الشاعر الأستاذ « محمود غنيم » فى « مجلة الرسالة » عندما كان فى أوج قوته ونشاطه قائلا :

« رأيتك يا دكتور تطل على ذلك الجمع الزاخر من علو شاهق ، غير عابىء ولا مكترث بما قد يكون مخبأ لك من سقطة أو سقطات ، تهوى بك من ذلك العلو الشاهق إلى هوة تجر عليك شماتة الشامتين وكلهم بالمرصـــاد . . . »

فأجابه بقوله :

« لم أرزق من الغفلة ما أطمئن به إلى أنى أعيش بلا خصوم وبلا

أعداء . وكيف وحياتي كلما قامت فوق مخازن « البارود » ، لو وقعت عليها شرارة واحدة من الخطأ لحولتني في مثل لمح البصر إلى رماد تذروه الرياح . . . . » .

ولكن مخاوف الأستاذ « غنيم » وغيره من عشاق هذا الأدب ، تحققت ، فقد وقعت عدة شرارات على مخازن « البارود » التي قامت عليها حياته ، فسببت له متاعب كثيرة ، ونغصت عيشته في أخريات أيامه ، وكانت فيالق الشامتين بالمرصاد ؛ كما قال الأستاذ « غنيم » .

وقد أسرف في الشراب غاية الإسراف فتكدرت حياته ، وتنغص عيشه ، وأصبحت الخمرة سببا في فقده منزلته الأدبية السابقة ! . . . وقد كان متضايقا من الخمرة منذ وقت طويل ، وقد صرح في كتاب « ليلى المريضة في العراق » بقوله :

« إن للخمر فضلا واحدا هو أنها كدرت حياتي ، ولو كان الله نجاني من هذا الإثم لكنت اليوم من كبار الوزراء . . . . »

وهو يعترف بأن لعاب الخمر « أخطر من لعاب الأفاعي والصلال » ويقول « شربت الخمر أول مرة بعد أن اجتزت امتحانات « الليسانس » سنة ١٩٢١ م . شربتها مع صديق سخيف لا يستحق أن أغضب من أجله صاحب العزة والجبروت ، شربتها مع مخلوق رقيع يتوهم أن شرب الخمر من علامات المدنية . . . . » .

وقد أخذ يهاجم المسئولين مهاجمة لا هوادة فيها لعلمه أنهم منعوا عنه حقه وهم ظالمون ، وقد فصل من عمله بالتفتيش نتيجة لمهاجمته المسئولين فى « وزارة المعارف » ويقول فى ذلك :

« إن كان وزراء المعارف تكاتفوا على مخاصمتى ؛ لأنى قلت كلمة الصدق فيمن رأيت من وزراء المعارف ، فنفونى من وزارة المعارف ؛ — فأنا أنشدهم قول أحد الشعراء القدماء :

انفوا المؤذن من دياركمو إن كان ينفى كل من صدقا

منحتنى الدولة العراقية أعظم وسام عراقى ، ومنحتنى الدولة الفرنسية أعظم وسام فرنسى ، أما الحكومة المصرية فسخرت وزراءها ليخرجونى من أعمالى بلا مكافأة ، وبلا معاش . . »

وبعد خروجه من الوزارة بقى يعانى ضيق العيش وقسوة الأيام ، فعطف عليه الأستاذ « على أيوب » وعينه فى « دار الكتب المصرية » . وظل فى دار الكتب ، حتى جاء الدكتور « طه حسين » وزيرا للمعارف ، فنقله إلى عمله الأول مفتشا فى المدارس الأجنبية .

ويقول « الأستاذ الزيات » : « ولو استطاع « زكى مبارك » أن يتملق الظروف ، ويصانع السلطان ، ويحذق شيئاً من فن الحياة ، لا تقى كثيراً مما جرته عليه بداوة الطبع ، وجفاوة الصراحة . . . »

لم يستطع أن يتملق الظروف ويصانع السلطان ، بل عاش على سجيته ،

وهاجم صاحب الصولة والسلطان ، فانتهى إلى نهاية مؤسفة ، لا تسر عشاق أدبه .

وفى مساء يوم الأربعاء ٢٣ يناير سنة ١٩٥٢ م . انتقل إلى رحمـــة الله . توفى « زكى مبارك » قبل قيام الثورة المصرية الحديثة بستة أشهر ، وهو الذى كان يتنبأ لأصحاب الصولة والسلطان بالزوال والعدم .

وقد قال مرة إن دنيا الألقاب إلى زوال ، ولو عاش فأدرك الثورة لرأى كيف تهاوت الألقاب من عليائها ، كما تهاوى أصحابها من أبراجهم العاجيـــة .

وبعد وفاته بأربع سنوات استطاعت الثورة المصرية — بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر — أن تطرد الاستعمار من الأراضى المصرية ، بعد أكثر من سبعين عاما ، وهو الذى اكتوى بنير المستعمر ، وذاق مرارة الاستعمار واعتقل مع الأحرار .

وقد رثاه الأستاذ « أحمد حسن الزيات » فى « مجلة الرسالة » بقوله :

« انتقل — إلى رحمة الله — الدكتور « زكى مبارك » ! ... أدركته المنية على أثر كبوة شديدة شجت رأسه ، ورجت مخه . . . فقد الأدب بفقده كاتبا من كتاب الطليعة . له جهاده الطويل وأسلوبه الجميل ، وأثره الباقى .

كان رحمه الله من الأدباء القلال الذين شقوا طريقهم فى الصخر ، بالعمل الدائب والدرس المتصل ، والتحصيـل المستمر . ثم قضى زهرة

عمره فى التعليم والتأليف والكتابة على خير مايكون العامل الصادق من المثابرة والجد ، فلو أنه انتهى كما ابتدأ لكان له فى تاريخ الأدب والفكر شأن غير هذا الشأن .

ولكن عوائق من طبيعته اعترضت طريقه الوعر ، فلم يبلغ الغاية التى هيأه لها اجتهاده واستعداده . هذه العوامل نفسها هى التى جعلته آخر الأمر يعنى طبعه ، ويوفر جهده ، فلا يكتب إلا عفو الساعة وفيض الذاكرة . على أن له من المؤلفات القيمة والمقالات الممتعة ما يثبت اسمـــه فى سجل الخالدين . جزاه الله على ما قدم أحسن الجزاء ، وعزى عنه أهله وصحبه خير الجزاء .

وقد رثاه فى « مجلة الرسالة » الأستاذ « محمد رجب البيومى » بمقال قيم بلغ خمس صفحات من المجلة ، وفاه حقــه ، وبين مكانته فى عالم الأدب . والأستاذ « مجمدة فتحى صفوت » من « العراق » ، والأستاذ « عباس خضر » المحرر فى « الرسالة » فى ذلك الوقت .

ورثاه الأستاذ « أحمد أمين » بالكلمات التالية :

« تنعى « الثقافة » أديبا من أدباء مصر هو الدكتور « زكى مبارك » ؛ فقد كانت له فضائل كثيرة من جد ونشاط وطموح ، وكثرة تأليف أكسبته شهرة فائقة . وكان إلى قدرته فى النثر عنده ميل إلى الشعر يقوله ويجيده ، وقد خلف لنا من نثره وشعره ثروة كبيرة ، فرحمه الله بقدر ما أدى لأمته من خدم جليلة . وعزى العالم العربى وعوضه خيرا . . . »

ورثاه في «الثقافة» الأستاذ «محمد سلامة مصطفى» بمقال قيم، والشاعر «كيلاني حسن سند» بأبيات من الشعر، وكتبت الأديبة «نعمات أحمد فؤاد» كلمة تحليلية عن ديوانه «ألحان الخلود» بعد موته بأسابيع.

وأقامت له نقابة الصحفيين حفل تأبين بتاريخ ١٨ إبريل سنة ١٩٥٢ تكلم فيها الأساتذة الدكتور «منصور فهمي»، و «محمد عبد القادر حمزة»، و «مظهر سعيد»، و «حسين كامل»، و «حافظ محمود»، و «محمد مصطفى حمام» و «مختار الوكيل»، والأديبة «زينب الحكيم».

ومما جاء في قصيدة الأستاذ «محمد مصطفى حمام»:

عابد الحسن هل جفا محرابه	مدمن العشق؟ هل سلا أحبابه؟
الخطيب المبين أخمه المـوت	وألغى بيــانه وخطابه
الجرىء المغاضب الصعب قد أودى	فلن يملك العــدا إغضابه
وهب الله للصدور صفاء	وتولى حسابهم وحسابه

وهكذا بلغ هذا الأديب الطموح الثائر نهاية المطاف، وأصبح ملكاً لتاريخ الأدب، يحكم عليه كما يشاء، بعد أن أدى واجبه — حسب اجتهاده — خير أداء.

مراجع الكتاب

١ — كتب زكى مبارك .

٢ — مجلة الرسالة .

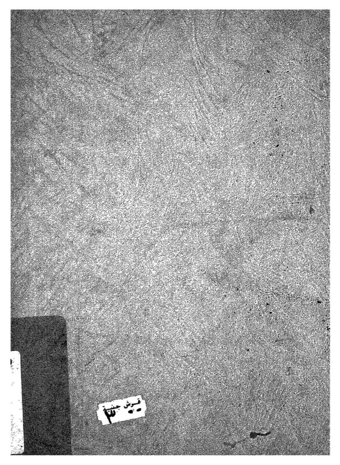
٣ — جريدة البلاغ .

٤ — مجلة الثقافة .

٥ — كتاب فى الأدب والحياة للمؤلف

فهرس




قرش جنية ٣